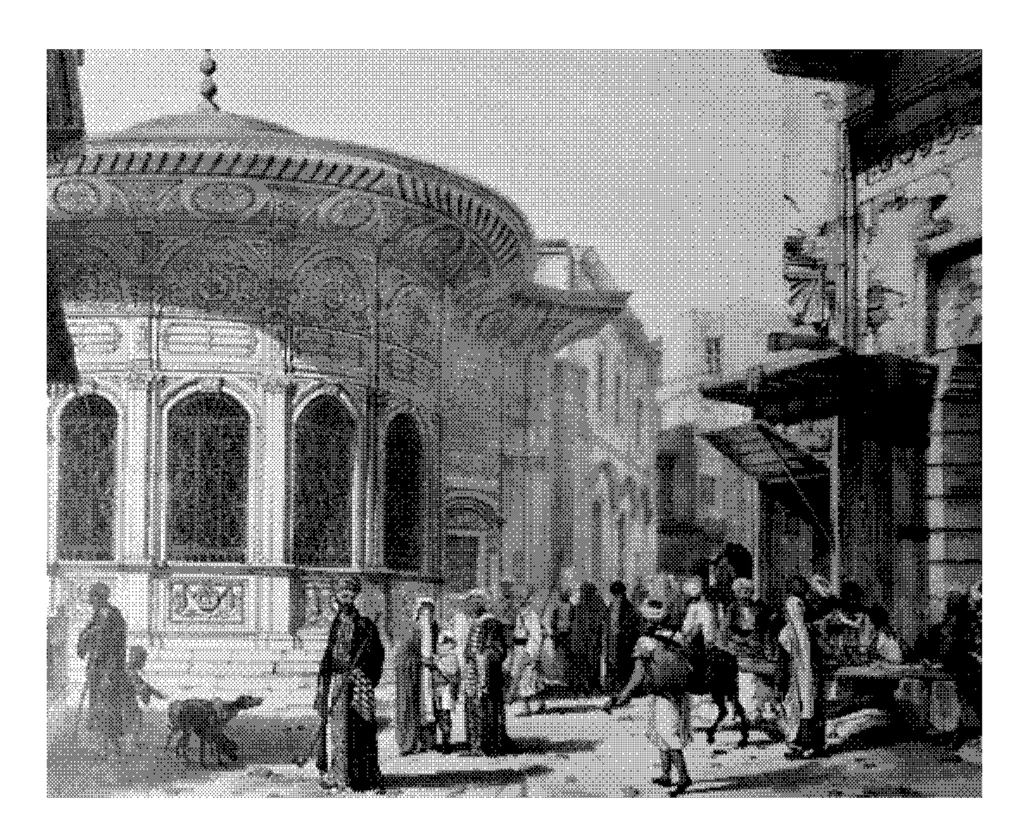
عرفه عبده على

طبعة جديدة

قَاهرة الشّرق

بريِشة الفنانين الأوٌروبيينْ

١٧٠لوحة من روائع الفن الإستشراقى



القاهرة الواثقة بتأثير سحرها

لقاهرة الشرق .. شخصيتها وعبقريتها الخاصة .. وعالمها المتوهج بإيقاعاته المتداخلة .. الذى يستأثر بمخيلتى وإهتمامى ، فينقلنى من جهامة الواقع إلى رحابة التاريخ .. أقلب صفحات مشرقة لماضى عريق.. مداعباً تفاصيل هذا العالم المتوهج .. عالماً ثرياً بالمساجد والكنائس والبيوت والأشخاص ..

أحمل عالم القاهرة كله بداخلى ، وأطوف خلال معالمها .. فتمنحنى إيحاءً قوياً بأنها مدينة ذات حيوية خاصة وقدرة على الإستمرار ، برغم الفقر المدقع فى كثير من أحيائها والتفاوت الطبقى المخيف ، فقد نجحت فى أن تنسج بين الناس والأماكن والزحام والأشياء ألفة التعايش !

أتأمل المشهد تلو الآخر ، محاولاً إلتقاط ألوانه المتعددة وظلاله المتباينة ، فتتشكل أمامى لوحة متناسقة.. أو متنافرة ! تنوع خصيب فى الطرز المعمارية ، وكل منها يوحى بأسلوب للحياة .. شوارع ضيقة وشوارع تمتد وكأنها بلا حدود .. أسواق يشيع فيها رونق لا ضابط له ولا قيود .. واجهات الحوانيت .. وجوه الناس .. صخب الزحام .. نماذج الألوان .. بوابات حجرية ضخمة .. مآذن تستطيل فى شموخ وكبرياء .. وترنيمات بديعة الإيقاع تتوالى من كل مكان ، فيسكن الضجيج للحظات ، وتنساب الخشية إلى القلوب وتتسامى النفس إلى فيض من الورع .. أشجار تتمايل تحت سماء صافية ، فى تكاسل كأنها – غيد حسان – يدعوهن النعاس إلى فراشهن الحريرى !

أسرح طرفى عجباً وأتحسس بنظرات رفيقة .. أحجار المآذن والقباب والعقود والأبراج .. والوكالات ، الخانقات.. الأسبلة .. الحمامات والقصور .. لعلها تجلو لى سراً من أسرار القاهرة ، لا يزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه الغابرة .. وتمضى المشاهد كأنها الرؤى .. فيأخذنى إنطباع سحرى ، يوحى إلى بما كان عليه الحال فى سالف الزمان ، وبأن : "ألف ليلة وليلة" كانت حقيقة لا جدال فيها !

لقد شكلت "القاهرة" زاوية الدفء والحلم الجميل فى ذاكرة الكثيرين ، فكانت رحلة واحدة – كافية للبعض منهم – ليختزن تصورات ثرية عن "قاهرة الشرق" .. عن الطبيعة الساحرة وفنون العمارة المبتكرة وصخب الحياة وتنوع الألوان ، وكنوز الماضى التى شكلت طوقاً بديعاً من الحضارات التى تألقت على صدر التاريخ .

كانت القاهرة فى القرن التاسع عشر ، فردوساً لفنانى أوروبا ، الذين خلفوا لنا ثروة من إبداعاتهم الفنية الخالدة ، تبعث قاهرة الشرق حية فى خيالنا ، بالرغم من موجة التحديث التى نالت من طابعها المميز فى ذلك العصر ، إلا أنها ظلت قادرة – بسحرها الخاص – على أن تخلب ألباب هؤلاء الفنانين فتباروا فى تسجيل مشاهداتهم لواقع القاهرة ، آثارها ، أسواقها ، شوارعها ، صخب الحياة الشعبية ، بعيداً عن تداعيات العالم السحرى الغامض لقصص ألف ليلة وليلة !

ويذكر بالفضل .. أسرة محمد على باشا – مؤسس مصر الحديثة – الذى أراد أن "يترجم" الحضارة الأوروبية ، فإستقدم وخلفاؤه أشهر الفنانين الأوروبيين لتزيين سراياتهم الملكية ، فشكل هؤلاء حركة فنية أوروبية مستحدثة يميزها طابع رومانسى يستلهم إبداعاته من تفاصيل حياتنا اليومية .

فى القاهرة ، عاش هؤلاء الرحالة والفنانون ، حاضر مصر وماضيها القريب ، قبل أن يوغلوا فى أعماق تاريخها القديم ، فسجلت أقلامهم إنطباعاتهم فى حس مرهف ... وعانقت فرشاتهم معالم القاهرة وحاورت تفاصيل حياة المصريين المعاصرين ، فى بهجة تجذب القلوب وتأسر الألباب .

وكثير من الأدباء والفنانين الذين رحلوا إلى مصر ، كانوا مزودين بقراءاتهم عنها فى الآداب الكلاسيكية والمعاصرة ودراسات الإستشراق الأكاديمى ، إلا أن الناحية الجمالية البحتة هى التى إستأثرت بإهتماماتهم ، إجتذبهم سحر حياة الشرق فى القاهرة ، فعايشوها وإندمجوا فيها ، حريصون أن يلزموا أنفسهم ما توحى به مشاعرهم وأحلامهم ، فلم يحفلوا بلغة الإستشراق المعهودة عن سيطرة الغرب على الشرق ، ولم يبالوا بأن يكون إنتاجهم وإبداعهم يتفق وتوجيهات حكوماتهم الإستعمارية !

ومع بداية العصر الفيكتورى ، إجتذبت فنون العمارة الإسلامية ، وصخب الحياة اليومية لأهل القاهرة – بأدق تفاصيلها – الكثير من الفنانين الأوروبيين ، ومنهم من أقام بها لعدة شهور ، ومنهم من راقت له الحياة ، فإمتدت إقامته لعدة سنوات !

و يأتى على رأس الفنانين المستشرقين الرواد ..

- الفنانون الفرنسيون : أوراس فيرنيه ، تيودور شاسيرو ، أوجين فرومنتان ، بروسبير ماريلا ، نرسيز برشير ، جان ليون جيروم ، ليون بيلى ، أوريان دوزاتس ، تيودور فرير ، ألكسندر بيدا ، لوى كرابليه ، ديلا كروا لوى موشو ، فيليب بوتو ، ماشيرو ، دى هاجمان جوستاف مورو ، باسكال كوست ، بريس دافن .
- الفنانون البريطانيون : دافيد روبرتس ، لويجى ماير ، وليم بارتليت ، جوزيف بينول ، وليم مولر ، إدوارد لير ، جون فردريك لويس ، دافيد ويلكى ، شارلز هورسلى ، وليم هنت ، جون فيدا ، فردريك جودول ، والتر تيندال .
- الفنانون الإيطاليون : ألبرتو بازينى ، ايبوليتو كافى ، فيليبو باتولينى ، جيوسيبى سينورينى ، جيوسيبى أوريللى ، بومبيو ماريانى ، جوليو روساتى .
- الفنانون الألمان : كارل هاج ، بيفر كليمانس ، شارلز فيلدا ، فرانك كوسلر ، كارل أوجست لنتز .
- الفنانون النمساويون : رودلف ارنست ، هانز ماكارت ، لودفيج دويتش ، ليوبولد كارل مولر ..

ولا يمكننا أن تغفل السويسريان : مارك جلبير ، دافيد كورودى .. والروسى قسطنطين ماكوفسكى .

لقد سجل لنا هؤلاء الفنانين الرحالة الأوروبيين ، حقبة من تاريخ القاهرة ، مشرقة بالضوء واللون ، متألقة بأناقة الإختيارات ، فأبرزوا عالمنا الشرقى ، الجميل الغامض ، والذى رأى فيه هؤلاء الأوروبيين : سحراً أرواحنا ورفعة اذواقنا الجمالية والأخلاقية ..

كان عالمهم الخيالى عن الشرق ، مزدحم بصور مستمدة من اساطير ألف ليلة وليلة ، والقاهرة التى ظل للحياة الشرقية فيها : طابعها الساحر الجذاب الطريف قد الهمتهم موضوعات مبتكرة ، رائعة ومثيرة .. خلدوها بفرشاتهم صوراً .. ستظل تثرى وجداننا ، فالفن هنا – كما كتب ديلا كروا – يهيم فى الشوارع .. فقاهرة الشرق هى فردوس الفنان وحلمه الجميل ..

رواد فى مملكة الضوء واللون

دافيد روبرتس

استبقــت المعرفة الشرقية – صورة الواقع الشرقي – في أذهان الرحالة والفنانين الأوروبيين ، فكان نزوعهم نحو الشرق " ملتقى الحضارات القديمة " هو نزوع معرفي مرادف للإبـداع و الإلهـام ، بحثـاً عـن " النمـــوذج " الذي ارتسم في مخيلتهم و إدراكهم عن : " الرائع " .. و " المدهش " .. و " الرومانسـي " !

وحتـــــى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت قد تشكلت منظومة فكرية – فنية متكاملة من روائع الأدب و فن التصوير ، أسهمت في اكتشاف عالم الشرق و معطياته الجمالية ...

ولا جدال فى أن "دافيد روبرتس" ستوك بريدج ١٧٩٦ – لندن ١٨٦٤ ، هو أعظم الفنانين المستشرقين ، فقد فاق الجميع عبقرية وأسلوباً وإنتاجاً ..

ومن أول وهلة ، نلحظ أن بدايات روبرتس وتكوينه وحياته لم تكن عادية ، فهو ينتمى إلى عائلة فقيرة جداً ، إستقرت فى ستوك بريدج بمدينة ويست كيرك ، كان والده إسكافياً ، لم يهتم بتعليم إبنه ، لكنه إكتشف فيه ميوله إلى الرسم الذى لا يتناسب مع صبى فى مثل بيئته ..!

بمجرد أن تعلم دافيد الصغير القراءة ، كان يلتهم الكتب إلتهاماً ، وحبه للمعرفه جارفاً .. ألحقه والده بمدرسة داخلية ، غير أن القسوة التى كان يعامل بها ، قد تركت فى حياته أثراً مريراً .. "وكالصبية الآخرين ، كنت أُعامل بوحشية ، حتى أن جلد يداى وقدماى كان مشققاً بصفه دائمة من أثر الضرب بالعصا" ..!

طلب دافيد أن يترك المدرسة ويلتحق بعمل ما ، وأبدى رغبته فى أن يصبح رساماً أو يمتهن أعمال الدهان ، وإقترح أحد أصدقاء الأسرة ، أنه يستطيع أن يمارس الرسم إذا ما تعلم مهنة تتيح له أن يكسب عيشه ، ويتكفل بنفقاته كفنان ، حينئذ كان فى العاشرة من عمره .

قبل إختراع الدهان بالزيت ، كان دهان المبانى بمواد بسيطة ، والواجهات تتطلب مهارة ودقة فى زخارفها ، وإستطاع روبرتس أن يتعلم الكثير خلال تلك الفترة ، وأصبح الفتى المدلل لصاحب فريق العمل – جافان بيجو – وبمرور الزمن ، بدأ روبرتس يبدى قلقاً وشعوراً بعدم الإستقرار ، وبالرغم مما عاناه من قسوة ومرارة فى تلك المرحلة ، إلا أنه إكتسب من بين فريق العمل هذا صديق عمره "دافيد هاى" الذى تخصص فى أعمال الزخرفة الداخلية ، والذى أصبح فيما بعد ، فناناً شهيراً وكاتباً فى الفن والجمال ، بعض

زملائهما كانت لهم أيضاً طموحات ، فأقاموا لأنفسهم مرسماً فى قبول بمحل إقامتهم فى سن السابعة عشرة، عمل روبرتس نقاشا فى "بيرث" وإحتفظ بهذا العمل لمدة سنتين ؛ بعد ذلك عمل روبرتس عدة سنوات ، فى أعمال الزخرفة والديكور بأحد المسارح، وشارك فى إنتاج بانوراما تجارية شعبية. وقد اكسبته هذة الممارسات مهارة ، وخبرة وسرعة عجيبة ، فى تغطية مساحة كبيرة من قماش الرسم فى يسر وسهولة.

و الأعمال المسرحية المؤثرة، أكسبته دراية بالفنون المرئية، وأصقلت أسلوبه ورويته كفنان متميز، وأعدته للقيام برحلته إلى مصر والأراضى المقدسة ١٨٣٨- ١٨٣٩ .

ومما لا شك فيه أن المعرض الذى ضم نتاج هذه الرحلة كان فاتحة لموجة من الفنانين المستشرقين ، ورحيلهم إلى الشرق خلال العشر سنوات التالية ، وعلى رأسهم ديفيد ويكلى وريتشارد داد .. وقد وضع روبرتس الفنان الرحاله منهاجا جديا يعتمد على البلاد الإسلامية المعاصرة، من زاوية الفن القديم " متاحف أثرية " تقدم على الطبيعة تقاليد وعادات وأزياء متوارثة من الأزمنة القديمة ، وكان فى ترحاله يهتم كثيرا بتفاصيل الحياة اليومية للشرق ، كما لاحظ عدم إتصاله بالمواطنين إلا فى حالات الضرورة القصوى ، وقد يكون ذلك عرفا سائدا ،بأعتبار أن الدليل الذى يقود القافلة أو المترجم الرسمى التابع للبلاط العثمانى هو بمثابة حاجب بين المؤمنين الحقيقيين وهؤلاء الكفار الين يزورون المنطقة .

فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٣٨ وصل روبرتس إلى الاسكندرية ، بعد أن توقف بجزيرة كريت ، وقد أبحر منها بعض الحجاج المسلمين فى طريقهم إلى مكه ...

" ومن المسلم به أننى ومفكرتى الخاصة بالاسكتشات السريعة ، كنا فى شغل عما حولنا " كتب ذلك وهو يوصف هؤلاء الحجاج فى خطاب إلى إبنته ... " ويؤدون خمس صلوات فى اليوم ، ومشهدهم ساجدين من أكثر المشاهد تأثيرا " وأشار إلى تميز المسلمين بالتقوى والورع دون تعقيد .

وفى رسالة أخرى " قمنا بزيارة سوق الرقيق المثير للنفور ، الفتيات يمثلن الغالبية العظمى من الرقيق.. البعض منهم شركسيات ، والبعض الأخر زنجيات ، الشركسيات يرتدين ملابس قيمة ، أما الزنجيات فكن يجلسن القرفصاء تغطى أجسادهن ثياب رثة ممزقة ، تحت شمس محرقة يمكنها أن تقتل أى أوروبى ، لقد كان مشهدا مثيرا للملل و الاشمئزاز ، وغادرته وأنا فخور بإنتمائى إلى أمة قد لفظت تجارة الرقيق "..!

حساسية روبرتس أثارها هذا الموضوع اللاإنسانى ، فى نفس الوقت تزايدت حملات أنصار إلغاء الإسترقاق ، وطالبوا بفرض قوانين ضد الرق فى البلاد الأخرى ، من ناحية أخرى ، كانت الطرق التى يسكها تجار العبيد ، هى ذاتها التى يسلكها الرحالة الأوروبيين ، فكانوا كثيراً ما يلتقون بقوافل الرقيق !

فى الأسكندرية ، أمد الكولونيل "باترك كيمبل" القنصل العام البريطانى ، الفنان روبرتس بخطابات توصية إلى محمد على باشا نائب السلطان العثمانى وحاكم مصر ، وبعد عدة أيام قضاها بالإسكندرية ، بدأ رحلته إلى القاهرة ، بصحبة مجموعة من السائحين الإنجليز الأثرياء وخادم يدعى "إسماعيل" من الإسكندرية ..

وفى القاهرة ، تفاوض لإستئجار دهبية ، هو وثمانية من رفاقة ، ليركبوا النيل حتى الشلال الثانى ، وكان الإتفاق محدداً بثلاثة شهور ، وبواقع خمسة عشر جنيهاً إسترلينياً لكل شهر .

وبينما كان روبرتس فخوراً بأنه أول فنان بريطانى يصعد فى النيل حتى لحق به الفنان "وليام جيمس مولر" بعد أربعة أسابيع تقريباً ..

وقد بدا من خلال إبداعات روبرتس ويومياته ، إهتمامه البالغ بآثار مصر القديمة .. وقد تأثر بما شاهده من قوافل حزينة للرقيق المهرب ، ومن أعمال السخرة والخدمة العسكرية الإجبارية .. وآثار إستيائه أن دهبيتهم إلتقت المركب الفاخرة للباشا ، ولكن لم توجه لهم الدعوة ..!

أطلال الفراعنة التى شاهدها روبرتس ، تختلف تماما عما يشاهده السائحون اليوم ، فقد كانت فى أمس الحاجة إلى عمليات ترميم هائلة ، والمعابد العظيمة – حينئذ – كانت مدفونة فى الرمال حتى منتصفها ، وإمتدت إليها بيوت المواطنين وتداخلت معها !

كتب روبرتس فى الأقصر : "سرت هذا الصباح ، على أحجار وأطلال هذا المعبد الهائل ، المندثر بين منازل مشيدة بالطوب اللبن .. تسلقت مدخل المعبد ، حيث أمكننى رؤية بقايا هذا المعبد وأعمدته المتداخلة مع المبانى الحديثة" .. وشد ما آلمه أن يعيش المصريون حياة بدائية ، بائسة .. وفى أدفو ، أرهقة التفكير فى هذا الأمر ، "هل من الممكن – ذات يوم – أن تعود هذه الصحراء لتصبح خلية للنشاط الإنسانى كمـــــا كانت ؟" .. وربما كان ذلك محتملاً – من وجهة نظره – "طالما أن مصر هى محور إرتكاز علاقة بريطانيا بالهند" !

وبينما كان روبرتس يفكر فى هذا التساؤل ، كان "توماس واجورن" أحد كبار ضباط البحرية البريطانية فى الهند ، يجرى مفاوضات مكثفة مع محمد على للموافقة على مد خط سكة حديدية بين القاهرة والسويس..

وفى أبى سمبل ، أطلق روبرتس لمشاعره العنان ، مأخوذاً بسحر وجاذبية المعبدين المنحوتين فى الصخور ، فمكث هناك بضعة أيام ، بينما واصل رفاقه رحلتهم ، فأنجز كثيراً من الإسكتشات السريعة للأطلال الرائعة التى تراكمت عليها الرمال .. وتلك كانت أقصى نقطة وصل إليها بوادى النيل .. وكانت كوم أمبو إحدى المدن التى أعجب بها ورسم معبدها الشهير .

عندما توقف فى أسيوط ، إكتشف أنه نسى كراسة الإسكتشات النوبية ، على مسافة ١٣٠ ك/م فى المقبرة المنحوتة فى صخور جرجا ، وأصبح روبرتس فى مأزق .. كاد أن يتحول إلى كارثة ، لأن حصيلة العمل فى نصف الرحلة مهددة بالفقدان ، ولحسن حظه .. كانت هناك مركب على وشك الإبحار جنوباً ، فإتفق مع إثنين من ركابها ، أن يأتيا إليه بهذه الكراسة الثمينة ، وأضطر روبرتس إلى التوقف عن عمل أى شىء ، ويكاد القلق يمزقه ، حتى عادت إليه ضالته المنشودة !

عقب عودته إلى القاهرة ، كتب إلى إبنته : "وخلال رحلتى هذه ، مررت ببقايا آثار عظيمة ، وأماكن كانت مأهولة قديماً ، عاشت فيها أسرات عريقة ثم طواها النسيان والزمان .. بعض بيوت قبطية مهجورة وعلى وشك أن تتقوض ... وأطلال تدل على مدن عظيمة ، كانت تزدحم بشعوب دأبها العمل والإبداع وتزدان بأضخم وأروع المعابد ، ومبان فخمة عجيبة ، اليوم .. تغير كل هذا ، أصبحت مهجورة ، قاحلة ،

معزولة ، تتولاها حكومات حمقاء ، وسكانها اليوم يجوسون خلال تلك الأطلال كأنهم حيوانات بدائية ، أتأملها وقلبى مفعم بالألم ..!"

"حصلت على ملف هائل من الإسكتشات لمعابد وآثار الفراعنة ، ذات الأهمية الكبرى ، وأتمنى أن أحقق ملفاً أخر عن جوامع القاهرة ، التى لا نظير لها فى العالم .."

والعقبة الوحيدة التى قد تعترضنى ، هى ضرورة الإستسلام للمعتقدات الإسلامية ، التى لا تسمح – للكافرين – بأن يطأوا ويتوغلوا داخل مساجدهم" !

ولكن بفضل علاقاته ، لم تعترضه اى مشكلة ، فحصل على فرمان من عباس باشا ، حفيد محمد على ، برسم الجوامع ، ومن الداخل أيضاً ، بصحبة بعض الجنود إذا كانت هناك ضرورة ، وكان محمد على باشا حريصاً على وجود علاقات جيدة مع الإنجليز ، وكما كانت فرماناته تتمتع بسلطة قوية فى مصر .. كانت لها أيضاً فى بلاد الشام قوة وسرعة النفاذ .

وفى رسالة كتبها روبرتس لشقيقته : "شكراً لله ، بفضل محمد على أصبح السفر إلى سوريا اليوم آمناً .. كأننى فى إنجلترا" !

وبالفعل لم يكن روبرتس فى حاجه إلى حماية الشرطة فى القاهرة ، وظل يرسم بين الناس ، حتى إذا إمتد به الوقت ، غير أن بعض المسلمين المتشددين الذين يحرمون رسم الصور ، عبروا عن إستيائهم بإسلوب لا يخلو من جهل و طرافة .. فأحياناً يجد حجراً أو برتقالة تتخذ طريقها إلى اللوحة التى يرسمهـــــا ..!

كتب روبرتس فى ٢٩ ديسمبر من يومياته : "رسمت لوحتين كبيرتين إحداهما لشارع يؤدى إلى المارستان، والأخرى لنفس الشارع ولكن من زاوية مختلفة ، يغلب على مشاعر الناس المودة ، وفى بعض الأحيان أجد صعوبة فى الرسم فى شوارع مكتظة بالعابرين ، لكن بصفه عامة ، كل شىء يسير بطريقة مرضية" .

كانت سعادة روبرتس تفوق كل وصف ، عندما يرى نوعيات مختلفة من الناس " .. جميع شعوب الشرق تختلط ببعضها" ..

ذات يوم ، إرتدى زياً عربياً ، وصحبه حارس نوبى ، ودخل جامع السلطان الغورى ، حتى توسطا صحن الجامع ، وفيه تحلق بعض الرجال المنهمكين فى تطريز قطعة كبيرة من القماش الفاخر ، وإقترب روبرتس أكثر ، ورأى البعض يجثون ويقبلونها ، فجثا على ركبتيه وتناول طرفاً منها ليتفحصها ، فإنتزعها حارسه من يده فى الحال ودفعه إلى الطريق .. لقد أراد روبرتس أن يلمس الكسوة المقدسة المخصصة للمشهد النبوى بالمدينة !

وقد أبدع "دافيد روبرتس" ستة ألبومات رائعة للآثار الإسلامية فى كل ربوع الشرق ، وقد سمح له بالرسم داخل المساجد ، بعد التأكد من أن فرش الرسم الخاصة به ليست من شعر الخنزير !

فى عام ١٨٣٨ ، صعد روبرتس فى النيل حتى أثيوبيا ، ثم جاس بصحراء سينا وفلسطين ، وبعلبك ، وهو يتحلى بزى عربى .. فالفنانون الإنجليز لم يستطيعوا مقاومة إغراء العودة إلى الحياة الفطرية .. فهجروا الأناقة من أجل العمامة .. والحذاء من أجل البابوج ..!

أقاموا فى الأحياء الشعبية ، و اقتننوا الجوارى والعبيد ، ودخنوا الحشيش .. فقد ضاقوا ذرعاً من تزمت العهد الفيكتورى ، ولا شك أن فكرة "الحريم" كانت تعابث خيال الأوروبى كلما تذكر الشرق ، وتجعله أسير حلم يرى نفسه – سلطاناً – محاطاً بعدد من الغيد الحسان !

ولوحات روبرتس التى ضمنها كتابه الضخم : "الأراضى المقدسة ومصر والنوبة" حققت له شهرة واسعة ، جعلت منه ألمع الفنانين الأوروبيين الذين زاروا الشرق ، وقد سرد إنطباعاته ونشاطه الفنى فى يوميات رحلته إلى مصر ، وفيها يصف القاهرة ، بأنها مدينة لا تماثلها مدينة أخرى ، بمناظر شوارعها وأسواقها العامرة وتنوع طرزها المعمارية .. ، ومن اشهر روائع روبرتس القاهرية : " جامع السلطان حسن "

" الباب الرئيسى الشهيد لجامع السلطان حسن "،" صحف جامع السطان حسن "،" منظر عام لميدان القلعة "،" داخل جامع المؤيد شيخ "،" مسجد السلطان قايتباى "،" مشهد من شارع المعز لدين الله "،" سوق الحرير بالغورية "،" مسجد السلطان الغورى "،" باب زويلة "،" سوق النحاسين "،" مقياس النيل"،" الكاتب العمومى "،" مقهى بالقاهرة "،" الغوازى "،" واجهة منزل بالقاهرة"..

وعلى الرغم من بعض المعوقات التى أشار إليها فى مذكراته ، مثل : ضيق الشوارع وإكتظاظ الأسواق وفضول الناس .. فكتب قائلاً : "أخشى أن تطأنى الإبل بأثقالها فأتحول إلى مومياء ، فمشهد الإبل على ما فيه من جمال قد يكلفك حياتك .. يالها من أسواق تختلط فيها شعوب الشرق جميعاً ، وأتراك ويونان فى أزياء غريبة ، وأخلاط متنافرة من البدو المسلحين ، وصعاليك مشردين ونساء محجبات يمتطين الحمير أو البغال ، يحرسهن عبيد أشداء ، وسقاءون بقربهم الجلدية المميزة ، وأسواق تتنوع معروضاتها بسلع شرقية وأوروبية ..

وأصحاب الحوانيت فى وقارهم ، لا ينزعون مباسم الشبك من أفواههم ولا أعتقد أن التدخين فى مصر قاصر على الرجال وحدهم ، بل أن بعض النساء المصريات يدخن فى بيوتهن ، ويستخدمن نرجيلات فخمة ثمينة ، كل ذلك يشكل أمامى لوحات ما كنت أحلم بها .. ولا أستطيع أن أمنع نفسى من الصياح متعجباً أمام هذه المشاهد المتنوعة : "ياله من جمال .. ياله من جمال آسر ، يالها من ملابس" .. خشيت أن يعتقد دليلى (الترجمان) أننى اصابنى مس من الجنون ، الحقيقة أنى كنت مذهولاً من كل ما هو مدهش وجديد أمامى ، ومقتنعاً أنى وجدت نفسى على ارض بكر ، وبأن هؤلاء الناس لم يسبق أن رسمهم أحد.." !

جون فردريك لويس

استبقت المعرفة الشرقية ـ صورة الواقع الشرقى ـ فى أذهان هؤلاء الرحالة والفنانين الأوروبيين ، فكان نزوعهم نحو الشرق ـ ملتقى الحضارات القديمة ـ هو نزوع معرفى مرادف للابداع والالهام ، بحثاً عن "النموذج" الذى ارتسم فى مخيلتهم وادراكهم عن "الرائع" و "الجميل" و

"الرومانسى" و "المدهش"!.. وحتى منتصف القرن التاسع عشـر ، كانـت قـد تشـكلت منظومـة فكريـة متكاملة من روائع الأدب وفن التصوير : أسـهمت فى اكتشـاف عالم الشرق ومميزاته الجمالية .

وكـان الفنـان البريطـانى الأشـهر "جـون فردريـك لـويس ـ John Frederiek Lewis" مـن أبـرز الفنانين الذين زاروا الشرق باعتباره مصدراً للالهام الحقيقى فى فنهم ، كما أثرت رحلته القاهرية علـى تطور أسـلوبه ومنهجه الفنى .

بـدأ جـون لـويس (١٨٠٥ ـ ١٨٧٦) حياتـه رسـاماً بـالألوان المائيـة ، وعـاش فـى انطـواء وعزلـة متحفظاً فى علاقاته مع الآخرين ، فكانت حياته أشـبه بحياة العقاب الذى آثر أن يعيش وحيداً ..!

وذاعت شـهرته بفضل لوحاته عن اسـبانيا التى زارها عام ١٨٣٠ بعد رحلـة طويلـة طـاف خلالهـا بقارة أوروبـا ، عنـدما نشـر مجمـوعتين مـن اللوحـات المطبوعـة علـى الحجـر بعنـوان "تخطيطـات أوليـة ورسـوم لقصر الحمرا " .

ترك لويس عدداً من الرسـائل ، لكنه لم يدون مذكراته ، وكانت أهم وأخصـب فتـرات حياتـه تلـك العشـر سـنوات التى قضاها فى القاهرة ، ولم توثق هـذه المرحلـة إلا مـن خـلال روايـات بعـض أصـدقائه وزائريه .

رحل جون فردريك لويس الى القاهرة عام ١٨٤١ ، غيـر أن اهتمامـه بالشـرق كـان مغـايراً لمـن سـبقوه ، فاسـتقر فى منزل رحب بحى "الازبكية" بالقرب من باب اللوق حيث تزيا بأزياء شـريف عثمـانى !.. وما من شـك أنه حاول أن يقلد الارسـتقراطية المصرية تماماً كما فعل المسـتشـرق البريطانى الشـهير "ادوارد لين" الذى حاكى واقع المصريين فى أدق تفاصـيل حيـاتهم ، وعـاش لـويس كمـا وصـفه صـديقه الأديـب والرحالـة البريطـانى : ولـيم ثـاكراى "متراخيـاً مسـلماً زمامـه للأحـلام والأوهـام بـين الأدخنـة المتصاعدة من الطباق المخدر فى بيت تركى الطابع فى طرازه وأثاثه " .

فى عام ١٨٤٢ ، استقبل لويس فى بيته بالأزبكية صديقه الفنان "ريتشارد داد" كما استقبل راعى الفنون والآداب سير "توماس فيليب" وفى عام ١٨٤٤ استقبل صديقه "وليم ثاكراى" الذى كتب عنه أروع حكاياته وأكثرها أهمية فى الفصل الأخير من كتابه : "ملاحظات عن رحلة من

كورنهيل إلى القاهرة" ووصفه بأنه كان يحيا حياة "آكلوا اللوتس" ! معرضاً بقصيدة "كوليردج" التى تصف هؤلاء الذين يجدون النسيان فى أكل بذور اللوتس !

وكتب ثاكراى : "لبيت دعوة صديقى جون على العشاء ، وهو يعيش حياة شرقية كاملة ، فالرجل يرتدى روباً أصفر طويل ، تتدلى منه لحية شهباء طويلة ، محلوق الرأس ، مغطى بقلنسوة قصيرة يعلوها طربوش .. بادرنى بالسلام فى ود ملحوظ ، خلع البابوج من قدميه قبل أن يأتى لنجلس سوياً على الأريكة ، صفق بيديه منادياً "مصطفى" بصوت رخيم ، وسرعان مادلف مصطفى حاملاً قنديل ، ثم أتى بالشوبك وأقداح القهوة .. خلال حوارنا ، لاحظت أن فتوره ولامبالاته الشرقية ، قد أخلت المكان لمودته البريطانية !.. وبدا رفيقاً ممتعاً على الرغم من أن مظهره يتوافق مع الحياة الشرقية ..

وعندما يخرج لويس ، يمتطى جواداً أشهباً مسرجاً بسرج أحمر ، وبصحبته خادمين يسيران بجانبيه مرتدياً حلة احتفالية رائعة زرقاء قاتمة ، السترة مطرزة وكذلك البنطلون ، وذقنه تستدير على صدره فيبدو كواحد من النبلاء ، وسيف دمشقى معقوف يتدلى على فخده ، وغطاء رأسه الأحمر يضفى عليه مهابة ووقار البكوات !.. لا يهتم بتوافه الأمور ، ويحيا حياة حالمة مسترخية ما بين ضباب الطباق وتناول القهوة ، يمكث منفرداً فى عزلته الاختيارية ، وقال لى : أنه لا يشعر بحاجته الى قفاز من الجلد الأبيض أو ياقات منشاة ، أو حتى إلى قراءة الصحف اليومية .. بل إن حياته هذه فى القاهرة ، كانت فى عينيه تحضراً ورقياً " !

وقد تميزت لوحات لويس بالدقة المتناهية ووضوح التفاصيل ، والتجديد فى اختيار موضوعاته ، بعيد عن الاستعراضات الرومانسية أو الكليشيهات التقليدية عن الشرق كالآثار وأسواق العبيد ، فقد كان ينظر بعين واقعية إلى كل ما يحيط من مشاهد ، مبتكراً "لوحات هادئة" مستلهمة من صميم

الحياة اليومية ، محافظاً على تقاليد العصر الأيقونية حتى وهو يبدع مشهداً شرقياً شعبياً مثل "كاتب الرسائل" فى السوق .

بالاضافة الى ذلك ، فعندما كان يرسم المنازل وقصور الشرق الفاخرة ، فقد كان يهدف بالأساس الى التعريف بثقافة عريقة ، كانت فى مفهوم الغرب حتى ذلك العصر : ثقافة بربرية !

ورؤية الشرق الاسلامى فى الفن الاستشراقى هى فى الحقيقة رؤية للذات الغربية فى إستجابتها لنوازعها الداخلية ولمنظومة القيم والفكر السائدة فى أوروبا آنذاك ، لذلك التفت الابداعات الاستشراقية حول موضوعات وصور فنية شرقية محددة تثبتت لحظات زمنية من تاريخ الشرق وتراثه : شوارع وأسواق ، قباب ومآذن ، مقاهى ، رقص وجوارى وحريم ، ومشاهد من الحياة اليومية أذهلت هؤلاء الفنانين بتنوع وثراء موضوعاتها .

وفى ابداعاته "القاهرية" ومنها : "مشهد من شارع وجامع الغورى"،"كاتب عمومى بالقاهرة"،"الحريم" أو فى الحرملك ،"استقبال فى الحريم"،"صلاة الظهر داخل مسجد بالقاهرة"، "بائع كباب"،"فى الكتاب"،"من حياة الحريم"،"ساعة القيلولة"،" الكشف عن رسالة غرامية "،" حديث الجوارى "،" وجبة الغداء "،"مملوك بك"،"مدخل مقهى فى القاهرة"،"بائع السجاد"، "استراحة القافلة"،" وعدة مشاهد فى خان الخليلى ومن شوارع القاهرة " .. كان لويس يبحث عن الألوان الدافئة التى تكشف محتوى الأبطال الشرقيين وأشكالهم ، ومضمون الديكور الشرقى ، وما بذله من جهد وابداع فى تحقيق صورة فنية رفيعة قادرة على الأداء التام للفكرة الأساسية يؤكد نزوعه إلى ابداع متميز سواء فى الصورة الرومانسية أم الاستشراقية ، خاصة وأنه كان يجذبه عالم الشرق الذى لم تتغير معالمه الروحية والأخلاقية وقيمه المتناسقة مع معاييره الجمالية .

وقد أشار عدد من النقاد إلى أن رسوم لويس الشرقية اتسمت بأسلوب جديد ، فهو يخط خطوطاً يخال الناظر معها أنها تمتد إلى مالا نهاية ، كما كان يمزج بين الأضواء والظلال بعناية فائقة تضفى على الرسم عمقاً ساحراً ، مضيفاً الى ذلك بهجة الألوان الغزيرة والدقة المتناهية فى رسم المشربيات والقيشانى والأوانى والحلى والملابس المطرزة بالقصب والطنافس والارائك والسجاد

وحليات الأسلحة وفن الارابيسك .. وجميعها تتداخل فى نمط الحياة اليومية الشرقية وأدواتها ، ينعم بها الشرقى ، ويحلم بها الرومانسى .. جسدها لويس فى "جو ساحر من الأناقة الروحية والذوق الفنى" .

فى عام ١٨٥٠ ، ظهرت لوحاته عن "عالم الحريم" الغامض ، والتى هزت الأوساط الفنية فى أوروبا ، كان لويس يحاول دائماً أن يحقق غاياته المثلى ، فاذا كان الشرق قد جذبه بوصفه عالم السحر والغموض والاساطير ، فهو أيضاً بلاد شهرزاد وألف ليلة وليلة ، وقدس الأقداس : المحرم ـ السرى فى حياة الشرقى هو فى ذاته مجاز وتأويل للعلاقة الرومانسية بالمرأة ، تلك العلاقة المضطربة والمتناقضة ، وجاذبية صورة المرأة بالنسبة للفنان هى رافد جمالى للابداع ، يحمل فى ذاته روح المسلمات الاخلاقية ـ الجمالية الاسلامية والشرقية الجذابة ، وقد نجح لويس فى الارتقاء بصورة المرأة وانتشالها من موضوعات "الجوارى" و "الحمام التركى" وما تمثله من متعه حسية الى خلق نموذج فنى راقى لجمال المرأة .

وفى لوحته الشهيرة "الحريم" أو الحرملك .. صور فيها مشهداً داخلياً فى منزل راق ورب البيت بين نسائه فى الحرملك ، من الجوارى والخادمات ، جالساً بين اكداس من الوسائد الانيقة ، وجميعهم يتطلعون فى فضول ممزوج بمشاعر متباينة إلى وافدة جديدة إلى الحريم !.. وقد حقق لويس نجاحاً باهراً بهذه اللوحة فى صالون "جمعية الألوان المائية" بلندن ، فى نفس ذلك العام ، وكتب الناقد الفنى الكبير : جون راسكين .. "لن تجد فى تاريخ الفن اكثر اكتمالاً وتفرداً من أعمال جون لويس" .

فى عام ١٨٥١ ، حققت لوحاته فى صحراء سيناء شهرة واسعة ، وكانت تجديداً فنياً استخدم فيه ببراعة التلاعب بين الضوء والظلال ، وفى ذلك العام ، تحول إلى التصوير بالزيت بعد أن اكتشف أنه يدر عائداً أكبر مما تدره لوحات الألوان المائية ، فعرض لوحته الشهيرة "مدخل مقهى بالقاهرة" .

فى عام ١٨٥٢ عرضت لوحته "كاتب عمومى بالقاهرة" فى صالون باريس ، وهى لوحة واضحة المعالم رقيقة التفاصيل نالت منه جهداً و عناية فائقة وكمعظم ابداعاته خظيت بشهرة عظيمة .

لقد توغل لويس فى روح القاهرة وفى مملكة الضوء والظل ، إلى حد استطاع به إظهار درجات العمق اللونى والتأثيرات الضوئية بصورة بدت متناغمة ورائعة فى لوحته "مشهد من شارع وجامع الغورى" أو "سوق الغورية" فهذه اللوحة بالتحديد تمنحنا انطباع سحرى لا ينسى عن الحياة الشرقية خارج الدور ، فى أشهر أسواق القاهرة ، حيث تطالعنا فى عظمة : مجموعة السلطان الغورى الأثرية ، تذكر بشواهد المجد القديم ، ويكتظ الشارع بالناس يتدفقون وينحسرون بلا انقطاع ، وتتوالى المشاهد بما تنطوى عليه من تفاصيل وأضواء وظلال وألوان وأزياء وعناصر معمارية ، فكل واجهة حانوت ، وكل ركن فى الشارع ، وكل مجموعة من الرجال المعممين ، والمكارى فى رفقة الاتان ذات السرج المزركش الألوان فى انتظار الزبائن ، وتاجر الأقمشة جالساً إلى منضدة فى مدخل البوابة الأثرية لمقعد الغورى ، وامرأتان محجبتان ـ بالحبرة واليشمك ـ يفاصلان "بالتأكيد" فى الأسعار .. كل مشهد بشكل لوحة بذاته ، وجميعهم كأنهم اتخذوا أماكنهم خصيصاً كى يرسمهم لويس فى اسكتش سريع .. اكتمل وظهر فى صالون لندن عام ١٨٧٦ .

أما لوحته "صلاة الظهر داخل مسجد بالقاهرة" فقد تميزت بالدقة وثراء التفاصيل ، وتناغم الألوان التى تخيرها بعناية فى تصويره لمنظر داخلى لأحد المساجد ، والمصلون فى ملابسهم الزاهية المتوارثة من عصور قديمة ، وتقديره لفنون العمارة الاسلامية ، جعل من هذه المعالم قيمة فنية اكثر من كونها مجرد ديكورات شرقية !

وقد دون لويس فى بعض رسائله ، انطباعاته عن مشاهد أثارت خياله فى شوارع القاهرة ، فوصف سوق الرقيق : "أحد الأماكن التى أفضلها ، كان السوق قائماً فى فناء مفتوح ، محاطاً بالأروقة على الطريقة الرومانية ، والرقيق يعرضون للبيع فى وسط هذا الفناء ، وعددهم نحو الأربعين معظمهم من الشباب ، وبعضهم أطفال .. كان مشهداً مثيراً .. وكما كنت أتخيله دائماً : مشهداً يبعث على الأسى والحزن ، والجوارى الجميلات يلزمن غرفة أعلى الفناء وهن غالباً قوقازيات وحبشيات ، وعندما يتقدم أحد المشترين ، أرى التاجر يرفع رداءً سميكاً من الصوف يغطى أجسادهن ، ليعرضهن على من

يرغب بالشراء .. بعض هؤلاء الفتيات كن يتمتعن بقدر فائق من الجمال ، قوام ممشوق ، وصدور ناهدة ، وقسمات دقيقة ، وعيون رائعة تنطق بمكنون مشاعرهن!..

تلك الأوقات التى قضيتها فى القاهرة ، هى أحلى ما عشت فى عمرى فهذه التجمعات والمشاهد الغريبة والألوان الصاخبة ، والأزياء والعادات العجيبة .. لا يمكنها أن تخاطب إلا "الفنان" !

هكذا كانت القاهرة تموج بهؤلاء الفنانين الأوروبيين الذين تباروا فى تسجيل مشاهدها حتى كتب وليم ثاكراى : "إن القاهرة هى فردوس الفنان المصور ، تنتظره فيها ثروة ضخمة يجنيها لو أنه صور كل شىء تقع عليه عيناه ، إذ تنبسط أمام ناظريه موضوعات يمكن أن تشغل جدران أكاديمية فنون بأسرها ، فقلما صادفت عينى مثل هذا التنوع فى الفن المعمارى وفى أسلوب الحياة وفى الجمال الجدير بالتصوير وفى تألق الألوان وتمازج الظلال والضياء .. "

ونحن ندين لجون لويس فردريك وغيره من الفنانين الأوروبيين لأنهم سجلوا لنا حقبة من تاريخنا الاجتماعى فى لوحات مشرقة بالضوء واللون ، ومتألقة بأناقة الاختيارات .

بروسبير ماريلا

من أبرز فنانى المنظر الطبيعى الاستشراقى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، لمع نجمه فى فرنسا بعد عرضه للوحاته الاستشراقيه مباشرة . فارتبطت شهرته بالشرق ، واسمه بمصر حيث كان يذيل لوحاته دائما باسم " ماريلا المصرى " !..

اكتشفه النقاد والجمهور فى لوحاته التى كشفت عن عالم مدهش ومجهول وساحر هو الشرق:طبيعه وشمسا ودفئا. كتب عنه تيوفيل غوتييه فى استعراض لصالون عام ١٨٣٤ يقول : " لقد حققت لى لوحات ماريلا صورة أحلامى عن الشرق . ففى لوحاته شعرت بأننى وجدت وطنى الحقيقى . وحين اشحت بوجهى عن هذه اللوحات، انتابنى حنين شديد وأحسست للتو وكأننى طريد أو شريد الوطن " !

شاءت الظروف صدفه أن تحمل ماريلا الشاب الى الشرق . درس فن الرسم فى متحف فنان ايطالى مغمور سبق له أن زار الشرق " فالنتين " . وانتقل فيما بعد الى متحف الفنان "روكبلان " الذى كان مولعا ايضا بالشرقيات لكى يتقن فن التلوين. وفى عام ١٨٣١ ظهر فى متحف روكبلان عالم المانى (متخصص فى علم النبات والحيوان) هو البارون فون هيجل ، الذى كان يبحث عن فنان شاب ليرافقه فى رحلته العلميه الى الشرق على غرار تقاليد القرون الماضيه ليسجل ويصور مراحل ومعالم الرحله . فاغتنم ماريلا الفرصه ليحقق حلمه فى رؤية الشرق . وطالت الرحله مدة سنتين ، زار خلا لها مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وعاش فيها طوال الوقت متنقلا بين احضان الطبيعه فى خيمه ينصبها اينما حل ، ويسجل مظاهر الطبيعه الشرقيه ومعالمها بشتى عناصرها وتفاصيلها (الطوبوغرافيه، والجغرافيه والتاريخيه والنباتيه والحيوانيه، وصور البيئه والحياه ونمطها وعلاقة الانسان بها). وفى منتصف الطريق اختلف مع البارون هيجل وبقى فى مصر وحيدا لعدة شهور عمل اثناءها على تزيين جدران مبنى المسرح فى الاسكندريه. كما قام برفقة بريس دافيين (هاوى جمع التحف الشرقيه و أحد أعلام تاريخ الفن العربىوالشرقىفىفرنسا القرن التاسع عشر) الى مصر العليا مما ساهم فى اطلاعه على العديد من الآثار التاريخيه والمعالم الجغرافيه والظروف المناخيه الخاصه بمصر .

وفى أعوام الثلاثينيات كان مرسم ماريلا فى باريس وكذلك مرسم ديكان بمثابة متحفين للفن الشرقى . وغالبا ما كان يرتادهما ب. ميريميه و ت. غوتييه وستندال والاخوان جوانو وجيرار دي نيرفال . وجمعت بينهم أواصر الصداقه والمحبه المشتركه للشرق والتصورات المشتركه للشرق والتصورات المشتركه عن الرساله الرومانسيه للفن . وكان ماريلا أول من اطلع الجمهور الفرنسى على تأثير ضوء الشمس فى الشرق ، وقدم أعمالا تتسم بالتحام الإنسان مع البيئه المحيطه به .

وقد أبرز ماريلا لأول مره فى فن التصوير الرومانسى الميزه الأساسيه للمدينه الشرقيه : نقطة تلاقى الأبعاد المتضاده للخطوط العموديه فى المبانى الدينيه (المنائر والمساجد) والخطوط الافقيه للعماره المدنيه (أى البيوت) . فالمسجد بصفته قلب المدينه ، وبوصلة الحياه الدينيه و الاجتماعيه والحكوميه والثقافيه، لعب دور المؤسسه الدينيه والدنيويه، ففيه يجتمع الناس للصلاه ، ولممارسة الطقوس والأعياد، وفيه تجرى المشاورات، وتلقى المحاضرات حول الدين والفقه و الأدب ، كما تدور النقاشات حول الشعر والفلسفه . بحيث بات المسجد عباره عن " بيت الناس" ومجلس الثقافه والسياسه . ودوره لا يقل أهميه عن دور الجامعه فى أيامنا الحاليه . ومن الطبيعى أن يجذب المسجد انتباه الغربيين بحكم أهميته فى حياة الإنسان المسلم ، وبحكم مظهر الفخامه المعماريه البارز حيث يرى من بعيد قياسا على سطوح أبنية المدينه التى لا تتعدى فى ارتفاعها الطابقين فضلا عن القيمه الفنيه والزخرفيه التى تميز فن بناء المساجد الإسلاميه وتبرزه كنصب دينى ـ حضارى احتفالى الطابع !

ويبنى ماريلا فراغ اللوحه فى العمق مستخدما مبادىء الديكورات المسرحيه المألوفه لديه . فالزقاق لا يختفى فى رحاب الأفق ، بل ينغلق " بخلفيه" من جدران البيوت المتقاربه . وتكشف مهارة ماريلا فى رسم بعض التفاصيل ما يتمتع به من حس معمارى معين، والتناسب فى الفن المعمارى . كما أن المشربيات المتدليه من اليسار واليمين فى الشارع لا تخدش الانطباع بوجود وحده تركيبيه فى المنظر الطبيعى . ورهافة حس الفنان بأدق التفاصيل المعماريه وعناصرالزخرفه وبناء طوب الجدران لا تجعل المنظر الطبيعى جافا ، بل العكس ، تكسبه غموض المدينه الشرقيه بشبكه من الشوارع والأزقه والشرفات الخشبيه المتدليه فوق الشارع ، والعماره الجميله . ولإشاعة الحيويه فى منظر المدينه وتنويعه يدخل الرسام فى اللوحه أشكال أشجار النخيل الباسقه ، والجمال المتهاديه باعتزاز ، وجمله من التفاصيل المنزليه مثل : وعاء نحاسى مزخرف فى الركن الأيسر للوحه والاقمشه المعلقه فى الشرفه والأثاث الموضوع فى الشارع وغير ذلك . وجميع هذه التفاصيل التى قد تبدو " نافله" للوهله الاولى تمارس وظيفتها الخاصه بها فى منظر المدينه . ويبدو كما لو أنها تصور المبدأ الرومانسى لتوليف الفنون وتوافق العماره والانسان والنباتات وأعمال الفنون التطبيقيه والطبيعه وتلاحمها فى وحده منسجمه تعبر عن الفكره الفلسفيه لوحدة الكون .

وأظهر الفنان مصداقيه لا نظير لها فى لوحته " مشهد من ميدان فى القاهره" . وتبدو فيه بيوت شرقيه نموذجيه تزينها الزخارف المحفوره الظريفه ، والمنارات الباسقه المخرمه ، متعاليه الى عنان السماء ، مما يساعد الفنان على أن يحقق فى تركيب المنظر اندماج الواقع والخيال ، وشاعرية حياة المدينه وواقعها اليومى . فضلا عن ان

المعالجه اللونيه فى اللوحه رائعه : فالسماء الزرقاء الصافيه ذات غيوم متفرقه ، مفعمه بجفاف الهواء ، والأشجار العملاقه التى يبدو وكأنها " تمر" عبر الضباب القائظ المائل الى الاصفرار !...

وكتب ماريلا يقول : " ترى حدة التضادات بجلاء فى القاهره بالذات . فهناك يذوب كل شىء فى انسجام المنظر الغريب : الأضرحه والمساجد وبساتين النخيل . والنيل الذى يبعث بألقه الحياه فى الصحراء ، والأنماط المتعدده للأبنيه السوداء والصفراء والبيضاء والرماديه، والازقه الضيقه ، حيث يحتشد الناس ... وتستقر ذرات رمالها فوق آلاف وآلاف المآذن، المكسيه بزخارف إسلاميه (أرابيسك) دقيقه، وأروقتها مبنيه بحذق ، كما انها نفسها تبدو كأشجار النخيل فى البساتين. ويحفز هذا المنظر المدهش حمية الفنان " .

ولا يكتفى ماريلا فقط بتثبيت ادق تفاصيل الخرائب الشهيره ، بل يقابل مفهوم"الماضىبالحاضر"، ويصور كما فى اطلال"مسجد الحاكم فى القاهره" ولقد اتاح للفنان موقفه الفردى من الشرق احلا ل الانسجام بين عالمه الداخلى وعالم الطبيعه الشرقيه . " إن المنظر الطبيعى هو حالة الروح ، ويعجب من يقرأه حين يكتشف التشابه فى كل جزء " وأتاح ماريلا موقفه من الشرق ومن مصر ، أن يرى فى وجوه المصريين انعكاسا لأحلامه المنشودة وحياته المثاليه . وأصبحت أشجار النخيل والمساجد والرمال الذهبيه والازياء الشرقيه والجمال ـ " ملوك الصحراء " الموضوع الرئيسىفىالمنظرالطبيعىالاستشراقى للفنان . وعندما ابدى ماريلا اهتماما خاصا بمناخ الشرق ودوره فى عكس أشعة الشمس ، ووضع الجو بما فيه الضوء والهواء ، فإنه اكسب لوحاته من المناظر الطبيعيه مسحه خاصه .

كما جذب الفنان الرومانسى مشهد الصحراء الخاليه المترامية الأطراف مع أشجار النخيل السامقه ومياه النيل الشفافه المائله للاصفرار الذى يولد خواطر عميقه. وتبدو الطبيعه فيه بذاتها لوحه غريبه مبتكره واصيله . لقد توغل ماريلا فى روح مصر ، وفى مملكة الضوء واللون ، الى حد استطاع به اظهار درجات العمق اللونى ، والتأثيرات الضوئيه والتدرجات اللونيه الشفافه،وتنقلات اللون فى ألوان السماء والماء والرمال بصورة متناغمه خاصه . وحين صور ماريلا النخيل حدد بدقة الوقت من العام . وحيث ما برحت متدليه من النخيل أعذاق البلح الناضج . ولكل شىء نكهته الخاصه حيث يغمر نور الشمس المكان بأجمعه . علما بأننا لا نرى هنا التجسيد المركز لشدة الضوء ، كما فى " اطلال مسجد الحاكم " أو فى " شارع فى القاهره " ...

لقد صور ماريلا فى العديد من لوحات المنظر الطبيعى المعمارى " ساحة الازبكيه فى القاهره " ، " مقهى فى بولاق " ، " مسجد باب الوزير "، و " منظر من بولاق " معظم هذه اللوحات تقوم على أساس التوليف بين

الطبيعه ، والثقافه ، والبيكولوجيا فى وحده متسقه . ويعتبر ماريلا من رواد المنظر الطبيعى الاستشراقى الذى أدخل العماره الإسلاميه بوصفها نشاطا روحيا لشعوب الشرق وإن كان ماريلا قد طور ما بدأه فنانو عصر النهضه والباروك فى تصوير المنظر الطبيعى غير أن مصادره الأولى كانت بلا شك أعمال فنانى رحلة بونابارت على مصر (فيفان دينون وكتاب " وصف مصر ") وكذلك كتاب المهندس المعمارى كوست (تلميذ ليدو) الذى زار مصر عام ١٨١٧ بصحبة عالم الجغرافيا جيمور ، ونتيجة رحلته هذه صدر كتابه المصور وألبومه الشهير (العماره العربيه ونصبها فى القاهره ، تخطيطات وصور ما بين عام ١٨١٨ ـ ١٨٢٦) الذى صدر عام ١٨٢٩ فى باريس . ومن المحتمل أن يكون ماريلا قد استند الى هذا الكتاب فى نقل تفاصيل الزخرفه وتحديد الأساليب المعماريه الإسلاميه قى مصر . ففى لوحته " منظر من بولاق" يبدو تأثر ماريلا بصور لوحات فيفان دينون من كتابه عن مصر ، وكذلك بصور ألبوم كوست . وبخاصه تصوير المآذن والجوامع فى علاقه عضويه بالمناخ والطبيعه الصحراويه ، ونمط حياة الانسان !...

لقد توغل ماريلا فى مملكة الضوء واللون وفى روح القاهرة والقاهريين فاستحق ان يطلق عليه " ماريلا المصرى " !

لودفيج دويتش

تألق الفنان النمساوى " لوفيج دويتش " **١٨٥٥ – ١٩٣٠** فى ثلاثية عصر " صالون باريس " حيث نالت لوحاته الاستشراقية عن القاهرة شهرة واسعة ، تميزت بالروعة والابهار ودقة التفاصيل .

درس دويتس فن التصوير فى " فيينا " على المصور الشهير " فور باخ " ثم استقر به المقام فى باريس درس على الفنان الفرنسى " جيروم " وتأثر به ، كان دويتش شخصية بسيطه متواضعة يؤثر البعد عن الاضواء ، وشغف دويتش بالشرق الاسلامى فاقتنى فى مرسمه الكثير من التحف الاسلامية وبلاطات القاشانى والمباخر والملابس والنعال والاسلحة الشرقية ، وكانت أولى رحلاته إلى القاهرة عام **١٨٨٣** وتعددت زياراته اليها حتى عام ١٩٠٤ وامتدت اقامته فى بعض رحلاته الى اكثر من ستة اشهر .. تميز دويتش بتصوير المواقف شبه القصصية للقاهرة الاسلامية فى تقنية رائعة ، كما برزت عنايته الشديدة بتفاصيل الحياة اليومية والوانها الثرية الصارخة ، ومن اشهر اعماله القاهرية : " المجاورين فى الازهر "،" صانع الاثاث "،" كاتب الرسائل "،" بائع العرقسوس "،" بائع الخطوطات "،" مدرب الافاعى "،" بائع السحلب "،" مباراة الشطرنج "،" خروج المصلين من جامع ازبك اليوسفى "،" عازف القانون "،" امام ضريح السلطان قلاوون".

جان ليون جيروم

نهضت في أحضان بلاد الشرق : إبداعات فكرية و حضارية للعقل الإنساني ، شكلت عالماً متوهجاً بروعة الإبداع و سحر الخلود .. فاجتذبت كثير من الأدباء و الرحالة و الفنانين ... وكان من بين من عانقت فرشاتهم " ملامح الشرق " : الفنان الفرنسي " جان ليون جيروم – J.L. GérÔme " ١٨٢٤ – ١٩٠٤ ، أحد أشهر الفنانين المستشرقين في القرن التاسع عشر .

طــــــاف " جيـروم " بالعديد من بلاد الشرق ، إلا أن " مصر " ظلت هي معشـوقته الأثيـرة ! .. و أمضى أكثر من شتاء في " ذهبية " على النيل بالقاهرة ، يدرس بعناية فنون العمارة الإسلامية ، ويفتش بعيون الفنان و المؤرخ وعالم الآثار عن تفاصيل الحياة اليوميـة و الأحـداث التاريخيـة و جنـود الأرنـاؤط وتجـار الرقيق و بائعي السلاح و تجار السجاد و .. الوكالات و المساجد و السـواقي .. و العوالـم !

كـانـــت أولى زيارات " جيــروم " لمصـر – مسـتجيباً لإلهامـات الشـرق الغـامض – عـام ١٨٥٤ ، و لوحاته الاستشراقية هي أبرز أعماله ، التي احتلـــت الصدارة في معارض " صالون باريس " لمـدة ثلاثـين عاماً ...

وقــــــد كتب جيروم يوميات رحلته الأولى في ثلاثين صفحة ، تولى نشرها " مورو فوتييه " ٠٠ أيضاً وصف تلميذه " بول لينوار " رحلة جيروم في كتابه المنشور عام ١٨٧٢ ٠٠ كما إستخدم الكاتب الصحفي " ادموند آبوت " الذي شارك جيروم في رحلته ، الجزء المصري من الرحلة ، كلوحة أساسية لقصته " الفلاحـة " التي نشرت عام ١٨٧٠ و أهداها إلي جيروم .

وقــــــد ضم فريق هذه الرحلة ، بعض الصحفيين والمصورين من أصدقاء جيروم : البير جوبيل ، ليون يونات ، فامارس تيستاس ، ريتشارد جوبي ، وفردريك ماسون ، الذي روى جانباً من ذكريات هذه الرحلة في بعض مقالاته و قد وصف جيروم قائلاً :

" ... كأن جيروم ولد خاصة لهذه الرحلات النائية ، التي تتطلـــب بنياناً قوياً وفكراً حازماً .. يقف دائماً دون كلل أو ملل ٠ يقود القافلة بطريقة لا يمكن لأحد الاعتراض عليها ، مع إشراقة كل صباح ، كان يتولى الإشراف على أدق الأمور ، و توزيـع المهـام ، ثـم يمضـي ساعات طويلة : يدخن ٠٠ يصيد ٠٠ يدون بعض ملاحظاته ٠٠ ويفتش بعيون الفنان والكاتب وعالم الآثار ٠٠ و ما يكاد يصل إلي المعسكر ، حتى يبدأ العمل ، ولا يحول بينـه و بـين عمله مطر أو رياح ! ثم ينظف الباليت وفرش الرسم ٠٠ ويالها مـن صحبة رائعـة ، حـول مائدة ، تحت خيمة ! "

الرحلة الأولى إلى القاهرة

كتب جيروم في يوميات رحلته الأولى :-

" رحيلي إلي القاهرة .. إقامتي القصيرة في القسطنطينية فتحت شهيتي ، كان الشرق هو حلمـــي الجميل ، ربما ، كان أحد أجدادي من البوهيميين ، لأني أميل إلي الترحال ، ومولع بالتنقل ..

أرحل مع أصدقاء ، أنا خامسهم ، الجميع لا يحملون الكثير من المال ، ولكنهم يفيضون نشاطاً و حيوية ..

الحياة المادية في مصر – في تلك الفترة – قليلة التكاليف ، ولم تكن قد وقعت في براثن الغزو الأوروبي بعد .. نستأجر قارباً شراعياً ، قضينا أربعة أيام على صفحة النيـــل ٠٠ نصطاد و نرسم ٠٠ في ترحالنا من دمياط إلي فيله ..

نعود إلي القاهرة حيث نقضي أربعة شهور أخرى ، في أحد منازل سليمان باشا المؤجر لنا ، وبصفتنا فرنسيين ، فهو يستضيفنا في ود و ترحاب ٠٠ زمن الشباب السعيد والأمل و المستقبل أمامنا ٠٠ الكثير من اللوحات ، سواء منها ما سيحظى بنجاح كبير أو ضئيل ، أو تحوز إعجاب الجمهور بدرجات متفاوتة ، سوف أنتهي منها بعد هذه الإقامة على شاطئ " أبو الأنهار " ٠

لقـــد وجه – جيروم – أعماله إلي تلك الناحية ، فهو رسام تاريخ ، وموهبته اصقلتها الدراسة و الخبرة ٠٠ متأنق ، ملتزم ، مفعم بالإبداع ، و الإحساس الخاص ٠٠ الذي ستزداد أهميته بالنسبة للفنان في ذلك العصر ، عصر التنقل العالمي السريع ، حيث أن كـــل شعب من شعوب هذا الكوكب معرض للزيارة و لو كان قابعاً في بعض الجزر النائيــة !

أصبـــح التنقل أيسر و أسهل ، والرحلة أكثر متعة ٠٠ سواء للاستمتاع بعناصر طبيعية جديدة ، أو مشاهدة أطلال الأقدمين ٠٠ و للاستكشاف ٠٠ والبحث عن الغريب والمثير ٠٠ و النموذج الحلم ٠٠ موتيفات شرقية تنتمي إلي زمان آخر ومكان آخر !

كتـــب جوتييه : " كـان جيـروم لطيفـاً ، يتركنـا نتصـفح حافظتـه الغنيـة ، و أن نشـاهد رسـوماته السريعة (الكروكي) التي رسمها بالقلم الرصاص ، ملاحظات سريعة ، مسجلة من الحقيقة وجهاً لوجه ، دون استعداد ، ودون ترتيب ، وبدقة و عفوية أمينة ، وتعبير ساحر ، إن أقل ما أبدعه جيروم مـن رسـومات سريعة (كروكي) كانت واضحة ، وثابتة ، ومحدده و انتهت بإهمالها ٠٠ " !

" ٠٠ لقد قام الفنان الرحالة بعمل العديد من الدراسات بالصور الشخصية في منجم الرصاص وفقاً لنماذج متميزة : الفلاحين ، و الأعراب ، وزنوج مختلطي الدماء ، أناس لو وضعوا تحت ملاحظة جيدة ، لأمكن الاستفادة منهم في الأبحاث عن أصل الإنسـان أو علـــم الأجنـاس و تطورهـا وسـماتها وتقاليـدها فعلـى سبيل المثال – و ما زال الحديث لجوتييه :

الجمل ، درسه رحالتنا من جميع جوانبه ، في كل تصرفاته ، و كل خطواته و كـل مواقفـه فـي المشـي أو الراحة ، و هو يجتر ، و هو يحلم ، و هو يلعق مشافره ويظهر أسنانه العاريـة ٠٠

لــــن ننتهـي مـن ذلـك إذا أردنـا أن نـذكر تفصـيلات لا نهائيـة ، و المسـجلة علـى هـذه الأوراق المنفصلة ، ودراسة نخيل الدوم ، و السواقي التي ترتفع مع عجلتيها أوانـي صـغيرة مربوطـة إلـي بعضـها كالمسبحة ، ومقاهي ، و وكالات و أماكن للاستراحة ، وزوايا الأهرامات ، وصورة جانبية لأبي الهول وفازات ذات خطوط و نقوش قديمة ، و أبواب جوامع ، كل ما تقدمه الصدفة للمسافر من جديد و غريب ٠٠ إلي عين خبيرة تعرف كيف تنتقي ، ويد متمرسة تعرف كيف تعبر وتبدع " ٠

ولقـــد أثرى جيروم ذاكرة الفن بزيـارات أخـرى إلـي مصـر فـي السـنوات ١٨٦٢ ، ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، ١٨٧١ ، ١٨٧٤ ، وسنة ١٨٨٠م .

ويـذكـر فريديريك ماسون الذي اصطحبه مرة على الأقل ، أن جيروم كان يعمل كل مساء و هو على المركب يرسم اسكتشات ، و لا ينقطع عن الرسم حتى يحل المساء ٠

وتجـدر الإشارة إلي أن جيروم قد شكل حمـاراً مـن الجـص ٠٠ اسـتخدمه فـي كثيـر مـن المنـاظر للشوارع ، و لوحات تعرض المكاريين ، و مناظر الشوارع التي أبدعها كلها في القاهرة ..

لمحات من رحلة جيروم سنة ١٨٦٨

كـــــان جيروم قد أعد نفسه لرحلة طويلة إلي مصر و آسيا الصغرى ، ولذا فقط طلب إجازة مفتوحة من مدرسة الفنون الجميلة بباريس – التي كان أستاذاً بها – تبدأ مـن أول ينايـــــر لسـنة ١٨٦٨ ، و كلـف صديقه " جوستاف بولانجيه " برعاية مرسمه لحيــن عـودتــه .

فــــي التاسع من يناير سنة ١٨٦٨ ، غادر جيروم مرسيليا متوجهاً إلـي الإسـكندرية ومنهـا إلـي القاهرة ، و قد روى " لينوار " تفاصيل زياراته المتعددة للجوامع الأثرية مع جيروم ، و سـجل انبهـاره بروعـة العمارة الإسلامية ، ودرس ورسم كل ما وقعت عليه عينيه، كما التقطوا صوراً فوتوغرافية ، وكان لجيروم لقاء بالخديوي إسماعيل ، الذي تحدث عن أهمية عمل الرسام و رسالة الفن ، ولذا فعقـب عـودة جيـروم إلـي باريس ، أرسل إلي إسماعيل باشا ، ألبوماً يتضمن صوراً فوتوغرافية لكل أعماله .

قضــى جيروم شهراً مأخوذاً بمعالم القاهرة الإسلامية ، ثم اصطحب رفاقه مرشداً وترجماناً ، وتحت قيادته توجهوا إلي الجيزة ، في ٢٠ فبراير ، على ظهور الحمير ، وأقاموا معسكراً لمدة ثلاثة أيام ، ثم اتجهوا جنوباً حتى وصلوا إلي " قنوات يوسف " الأسطورية المؤدية إلي واحات الفيوم ، اصطادوا عدداً من الخنازير البرية ، وطوال ترحالهم لم يتوقف جيروم عن الرسم .

وفــــي قرية سنورس (مركز بالفيوم) وجه دعوة إلي فرقة من العوالم ليرفهوا عنهم في المعسكر ، و قام لينوار و جيروم برسمهن و تصويرهن فوتوغرافياً ، ثم واصلوا رحلتهم بعد ذلك إلي مدينة الفيوم ، بعد أن تركوا أحد رفاقهم بالطريق ، فعاد إلي ضفاف النيل حيث لم يتحمل شدة الحرارة ، وعلى مسافة أكثر من مائة كيلو متر من القاهــــــرة ، اكتشفوا بعض المناطق التي يقطنها قليل من البدو ، ثم وصلوا إلي النيل عن طريق السكة الحديدية الجديدة ، وفي مواقف كثيرة ، كانت العربـة التـي يسـتقلونها ، تفصـــــل عـن القاطرة وتتوقف على الطريق بوسط الصحراء .. بينما السائق يذهب بالقاطــــرة لإحضـار الوقود !..

بعـــــد عودتهم إلي الجيزة ، استقلوا القطار إلي السويس ، ومنها واصلوا رحلتهم إلي جبال سيناء ، و قد عكست هذه الرحلة خبرة جيروم ، وإعجابه الشديد بالأعراب ، ومعرفته بطرائق حياتهم ٠ وتجدر الإشارة إلي أن جيروم لم يكن يكتب أكثر من فقرة واحدة في اليوم من مذكراته اليومية .

أحاطت المهابة قافلتهم الجديدة ، المكونة من عشرين رجلاً ، وسبعة و أربعين جملاً أحدها مخصص لحمل معدات و مواد التصوير الفوتوغرافي .

بـــــدأت المسيرة في ٢٢ مارس ، بمحاذاة الضفة الشرقية لخليج السويس ، وفي السادس من إبريل ، وصلوا إلي دير سانت كاترين وجبل سيناء ، بعد أن كابدوا كثيراً من الأمطار والبرد القارس و العواصف الرملية ٠٠ ضاعف جيروم من إسكتشاته ، فكانت ساحرة في كثير من الأحيان ، و بعضها ساذج ٠٠ وقال صديقه " جورنو " أن جيروم كان يشعر بأن هذا آخر عبور له للصحراء ، فرسم احتياطي كبير كان كافياً لتغذية لوحاته لسنوات طويلة .

قضوا أياماً بدير سانت كاترين ، كانوا يجهلون خلالها الكنوز التي اكتشفها "كورت فايتسمان " ٠٠ ثم ارتقوا جبل سيناء ، حيث قام جيروم برسم اسكتش لمعركة " علميك " .. و واصلوا رحلتهم إلي خليج العقبة ٠ ثم إلي مدينة " البتراء " حيث وقعوا فريسة لعصابة من قطاع الطرق لمدة أربعة أيام ، يفرضون عليهم أتاوة يومية باهظة على ما يحملون مـــن مؤن ، ويزعجونهم أثناء جلساتهم للعمل والرسم أو التصوير الفوتوغرافي ، ويطوفون حول خيامهم ليلاً .

ثـــم واصلوا الرحلة الشاقة إلي القدس ، حيث تولى " بونات " قيادة القافلة التي واصلت السير إلي سوريا ، بينما توجه جيروم إلي يافا ، ليستقل مركباً عائداً إلي مرسيليـــــا .

ومن اشهر ابداعات جيروم القاهرية : " الصلاة فى جامع عمر "،" المؤذن "،" داخل مسجد "،" الخروج من المسجد "،" تاجر سجاد "،" الحارس التركى "،" جندى ارناؤوطى "،" قافلة فى الصحراء "،" مدرب الافاعى "،" دراويش المولوية "،" امرأة قاهرية اما مدخل دارها "،" السجين "،" رقص العوالم "،" المكارى "،" نابليون يطل على ابى الهول "،" مشهد من شارع بالقاهرة ".

والتر تشارلز هورسلى

تمثلت أبرز إبداعات " هورسلى" ١٨٥٥ – ١٩٣٠ فى تصوير المشاهد الشعبية والبورترية ، وقد شكل الموتيف الشرقى فى أعماله جزئاً حيوياً فى مفهومة للوحه التشكيلية الرومانسية .

وقد صقلت موهبة هورسلى فى مرسم والده رسام التاريخ ج. س. هورسلى ، ودرس بالأكاديمية الملكية البريطانية ، التى منحته الميدالية الفضية فى فن البورترية .

أول لوحة عُرضت له بمعرض الأكاديمية الملكية السنوى عام ١٨٧٥ ، وفى نفس العام ، عمل رساماً بالجرافيك ، وأُرسل إلى الهند فى حاشية أمير الغال ، مكلفاً بعمل تحقيقات مصوره لهذة الزيارة ، وفى الهند طلب منه "باهواب باهاوالبور" أن يرسم له مجموعة من مناظر الصيد .

وكان لزاماً عليه أن يرسم طوال جولاته ، وقد أتاحت له هذه الرحلة ، زيارة مصر مرتين .

تشكلت القدرات الإبداعية لهورسلى فى عصر "الواقعية الجميلة" وتزود بمعنى عميق لملكة الفكاهة ، وكان لتنوع المشاهد وغزارتها دور فى إزدهار إبداعاته ، التى تألق فيها نزوع واضح نحو تصوير أنماط الحياة الشرقية التى لم يألفها الغرب .

وفى عام ١٨٧٧ ، عُرضت له عدة لوحات بمعرض الأكاديمية الملكية ، وفى عام ١٨٧٩ عُرضت له لوحتان عن القاهرة ، ألحقت بمجموعة هندية من المحتمل أنه قام برحلة جديدة إلى مصر عقب عودته من الهند .

وبالرغم من إيثاره أساساً للموضوعات الهندية ، إلا أن معظم إبداعاته خلال العشر سنوات التالية كان مستلهماً من مصر ، وعن الحياة القاهرية بصفه خاصة .

وهذه المشاهد القاهرية إرتكزت على تصورات إستشراقية تقارن بين الموروث الثقافى الشرقى والثقافة الغربية .

وعلى سبيل المثال ، رسم هورسلى لوحة لفرقة موسيقية نحاسية يرتدون زيهم الخاص الجميل ، تميزه السترة الحمراء المتألقة ، الموشاه بالذهب والتى تتباين ألوانها مع خليط من الألوان المبرقشة الصارخة للملابس الشرقية الفخمة ، مع الملابس الممزقة للجمع الغفير الواقف على الجانبين ، تستعرض هذه الفرقة فنونها فى شوارع القاهرة ، يتقدمها رئيسها سائراً مرفوع الرأس فى خيلاء ، تبدو عليه سمات الجد، غير مبال ببعض تنافر الأصوات !

وقد إهتم هورسلى برسم بعض المسلمين وهم يؤدون الصلاة فى طقوسها البسيطة ، أحياناً فى أماكن قد تبدو – غير لائقة – للعيون الأوروبية ، على سبيل المثال .. بين بطاريات المدفعية على متن بارجة

حربية، أو على ظهر إحدى مراكب الشركات السياحية ، بين دهشة بعض السائحين الذين راحوا يتأملون هذا المشهد !

واشتهرت رائعته القاهرية " الكلمة المنسية – درس تحفيظ القرآن " ايضاً رائعته " الصلاة فى محراب الجامع الازرق "

ولوحته الشهيرة " وقت الحاجة " التى تصور فتاة تبيع حليها إلى صاحب حانوت ، تعد موضوعاً فيكتورياً شائعاً فى الفن الأوروبى ، وبالرغم من تحليه بروح مرحه إلا أنه كان شديد الجديه فى مرسمه ، ملتزماً بين زملائة ، دقيق الملاحظة ، جمع فى شخصيته الفنية الروح الرومانسية والفكر الواقعى ، والتنوع والتجديد فى المعالجة الإبداعية للمعطيات الجمالية للشرق .

أوجين فرومنتان

كـــــان للأديب والفنان الفرنسي الشهير " أوجين فرومنتان – E. Fromentin " ١٨٢٠ – ١٨٧٦ دوراً بارزاً في حركة الفن الاستشراقي – في أوج مجدها – في منتصف القرن التاسع عشر " .

تميـز فرومنتان بنظرة جمالية جمعت بين الرومانسـية و الفكر الواقعي ٠٠ كان جذاباً " مفرط الحساسية " شديد التأثر و الانفعال ٠٠ و قد وصفته الكاتبة الفرنسية الشهيرة " جورج صاند " المعاصرة له

، بقولها : " أن تكوينه غاية في الرقة " و وجهه يأسر الناظر إليه بكل ما يعكسه من تعبير ، وحديثه مثل لوحاته و كتاباته : متألق ، حيوي ، خصب ٠٠ بحيث يمكنني أن أنصت إليه طوال حياتي !٠٠ أنه ينعم بتقدير يستحقه ، فقد كانت حياته كروحه نموذجاً للرقة و الذوق الرفيع و التميز " ...

تـأثـر فرومنتان بالمناخ الثقافي و الفني الذي كان يسود باريس في ذلك العصر ، وتغيرت معالم شخصيته تماماً ، عندما أدرك عدم جدوى دراسته ، و قد أنهى دراسة الحقوق بجامعة باريس عام ١٨٤٣ ، فبدأ يعيد تكوينه الثقافي من جديد ، بحضور محاضرات أعلام الفكر : اوجار كينيه ، ميشليه ، سانت بوف و غيرهم ، وبدأ الدراسة الأكاديمية لفن التصوير في اتيليه الفنان " ريمون " ٠٠ ثم في متحف الفنان " لويس كابيه " وتوطدت صداقته بالفنان المستشرق " شارل لابيه " .

كــــان فرومنتان دائم الإشادة بعالم الشرق ، وبعظمة شعوبه التي استطاعت الحفاظ على جمال الحياة و العادات و التقاليد الموروثة ، و تميزت إبداعات هـذا الفنـان ، برهافة الحس ، و المعرفة الدقيقة للعنصر الإنساني و للطبيعة و متغيراتها ، و ملاحظة أثر المناخ على السلوك و نمط الحياة خاصة في الصحراء ، و قد سعى إلي تخليد مناظر الطبيعة الجزائرية ، كما خلد ماريلا الطبيعية المصرية ٠٠!

دومينيك ..!

بالـرغــم من أن " دومينيك " هي الرواية الوحيدة لفرومنتان ، إلا أنها تبوأت مكانة خاصة في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر ، و عدها النقاد أحد معالم الرواية الرومانسية ، فهي تعتمد على تحليل النفس البشرية و ما يختلج بداخلها من مشاعر وانفعالات ٠٠٠ و قد عبر فيها فرومنتان عن تجربته

العاطفية التي عاشها و هو في الثانية عشرة من عمره ٠٠ في إطار من التسامي و المثالية ٠٠ و عن هذه الرواية يقول الناقـــد " إيميل فاجيه " في كتابه : تاريخ الأدب الفرنسي " ٠٠ إن دومينيك من الروائع النادرة في الرواية النفسية ، و الرواية النفسية تعتبر أسمى أشكال الأدب الروائي ، مما يدل على مدى صعوبتها ٠٠٠ وفي واقع الأمر ، فإن أكبر الأدباء لا يمكنه كتابة أكثر من رواية نفسية واحدة - هي روايته التي عاشها - بشرط أن يكون موهوباً " !..

كـــان فرومنتان و هو في الثانية عشرة من عمره ، قد وقع في غرام " جيني " ابنة الجيران التي تكبره بأربع سنوات ، و التى لم ترى في غرامه سوى طفولة طائشة !٠٠ وعندما تزوجت جيني ، كاد فرومنتان يفقد صوابه ، فكان أن أرسلته أسرته إلي باريس ليدرس القانون ، وفي كل إجازة يعود إلي مدينة " سان موريس " ليظل بجوار جيني فتاة أحلامه ، التي بادلته الحب و توثقت علاقتهما ٠٠ حتى توفيت و هي في السابعة عشرة من عمرها أثر عملية جراحية عام ١٨٤٤ ، ولحظة دفنها ، أقسم فرومنتان أن يخلد ذكراها ٠٠ فكانت رائعته " دومينيك " التي كتبها قعد وفاتها بخمسة عشر عاماً .

وتلبيـــة لدعوة الفنان " لابيه " قام فرومنتان بزيارة الجزائر سراً عام ١٨٤٥ حيث كانت أسرة لابيه مستقرة بمدينة " البليده " و كانت عائلة فرومنتان تعارض اتجاهه للفن ، فسافر دون علمهم ، و استمرت الرحلة لمدة شهر ، أثمرت حصيلة إبداعية هائلة ، وكتب لوالده رسالة ، أوجز فيها انطباعاته الدافقة :".. قد أكون مخطئاً ، غير أن رحلتي هذه ، وتوجه أفكاري الجديد ، وذلك الدرس الرائع الذي تعلمته في بلاد الضوء الساطع ، و الألوان الصاخبة ، و الأشكال الغريبة ، يعد تقدماً في عملي ، سيغدو ملحوظاً يوماً بعد يوم ، و كل هذه المعطيات ، تمنحني زخماً جديداً ، وتكسبني حماسة و قوة جديدين " .

فـــي صالون باريس ١٨٤٧ ، عرض لفرومنتان ثلاث لوحات ، تعرض مشاهد جزائرية ، قدمته بنجاح إلي الجمهور الفرنسي ..

لقـــد بلورت أرض الجزائر العملية الإبداعية والروحية لهذا الفنان ، ودفعته إلي معايشة الحالة الروحية للشرق ، و تسجيل كل مظاهر السلوك و العادات و التقاليد ، و الطقوس الدينية ، و الحكمة ، و حب الأرض وعشق الطبيعة ، و وصف حياة القبائل العربية ، في كتابية : " صيف في الجزائر " و " سنة في الساحل " ٠٠ وقد أشار في هذين الكتابين ، إلي سعيه الدائب لإكساب الصورة الشرقية : نبل و قدسية

الكتاب المقدس و عظمة العصور القديمة ، فعلى سبيل المثال ، كان يقارن دائماً بين نساء الجزائر و صورة "راحيل في الكتاب المقدس " ويقارن الراقصة العربية بالليدي ماكبث !

إن تعطش الفنان للعثور على شيء ما جديد في الشرق الفني جعله يوغل في عمق الطبيعة الجزائرية ليزور المناطق التي لم يزرها أحد من قبله ، (الصحراء الجزائرية حيث درجة الحرارة في الظل صيفاً تبلغ ٦٠ درجة مئوية) وبما أن الرومانسيين الأوائل ، وفناني الاتجاهات الفنية الأخرى كانوا حتى هذا الوقت قد استنفدوا في أعمالهم الاستشراقية كل ما من شأنه أن يثير الدهشة من مواضيع ، و صور و ألوان ، و أنماط ، واستكملوا تقريباً الصورة الرومانسية الاستشراقية ٠ وقاد ذلك فرومنتان إلي تركيز هدفه على الكشف عن " رؤية " جديدة للشرق مغايرة لكل ما سبقها ٠ فقرر أن يعيش بنفسه عالم الشرق الأنقى في " الصحراء " ، و أن يجرب أثر المناخ على أحاسيسه من " الداخل " ٠ ولم تراود الرغبة فرومنتان وحده فقط ، بل يكفي أن نتذكر ماريلا ، الذي تأثر به فرومنتان من الناحيتين الإبداعية و المعيشية ، وكذلك جيراروي نرفال (الذي عاش بين العرب ودرس لغتهم) فكتب يعبر عن رغبته هذه قائلاً : أريد أن أتغلغل عميقاً في العالم الأليف لهذا الشعب لإدراك أصالته ، و أعتقد بأن بلوغ هذا الهدف ممكن فقط عبر الاقتراب من هذا الشعب أكثر " .

لقـــد سعى فرومنتان لتخليد مناظر الطبيعة الجزائرية من المنطق نفسه للصبغة المحلية و لعبة الضوء و اللون مثل لوحة ذكريات جزائرية ، (متحف الفنون الجميلة في الجزائر) ٠ فتتراجع فيها أطلال الآثار المعمارية المحلية (بقايا أعمدة و قناطر) ، إلي خلفية اللوحة ، التي تزين مقدمتها بألعاب الفرسان ، دون المبالغة بتجسيد التفاصيل المعمارية ٠ ويمكن تفسير هذا التوجه بسبب طبيعة الآثار الجزائرية التي وقعت تحت نظره والتي تخلو من المواصفات التعبيرية و حجم الموضوع المرئي الذي يتبدى في شكل الآثار المصرية ٠ و فضلاً عن ذلك فإن فن العمارة لم يدخل في إطار اهتمامه ، بقدر الطبيعة ، فهو يسعى لرؤية المنظر الطبيعي الشرقي " بمنظار جديد " !

ممـــا لا شك فيه أن إقامة فرومنتان في الجزائر لفترة طويلة مكنته لاحقاً ، أي في الخمسينيات ، من إيجاد ذاته في لوحات شرقية صميمة تصب في جوهرها في التوجه الرومانسي الغريب ، غير أنها تنم عن فكر جمالي نظري منبعه الملاحظة الدقيقة لمتغيرات طبيعة الشرق ، و أثر المناخ على السلوك و نمط

الحياة و بخاصة في الصحراء ٠ لقد أنجز فرومنتان عدداً من لوحات " الصيد " ، الفكرة التقليدية الاستشراقية التـي تغلغلـت فـي الفـن الأوروبـي منـذ القـدم (مـع تغلغـل الموتيـف الفرعـوني و البـابلي و الآشـوري و الفارسي).

لقـــد أعـــاد الفنانون الرومانسيون – من خلال مشاهد الصيد – للشرق ماهيته الفنية الحياتيـة التقليدية ، لا سيما أنهم رأوا فيه تعبيراً عن تعطشهم للغريب و المدهش والغامض !

أنجـــز فرومنتان العديد من مشاهـد " الصيـــد " التي ميزته كفنان استشراقي يسعى دائماً إلي " التفـــرد " في رؤيته للشرق التقليدي ..

إن مشهد " صيد الصقور " يعتبر أحد مشاهد الصيد الشرقية التقليدية و المفضلة لدى العربي في الصحراء ، ولدى بحث فرومنتان عن مشاهد معبرة عن " روح الشعب " الصحراوي ، رأي في مشـــهد صـيد الصقور ، صورة شرقية بحتة لم يصورها قبله أحد من الرومانسيين فالصقر طائر الصحراء الجارح ، و عمليـة صيده مفعمة بالبطولة ، لأن المعركة بين الإنسان و الحيوان لا تدور على الأرض (كما في لوحات سابقيه) بل بين مخلوق الأرض و مخلوق السماء . فتظهر في لوحته " صيد العرب للصقور " صورة الفرســان العـرب على صهوات جيادهم الرشيقة يتابعون حركة الصقور في السماء على عدة فرق تتوزع على مساحة مجرى مائي (ساقية ، أو نهير) بينما تلف فضاء اللوحة غلالة ضبابية شفافة من انعكـاس ضـوء المســاء الأصـفر الباهت على صفحة الماء الفضية ، بحيث تشترك السماء و الأرض في سيمفونية لونية متناغمة !

عـايـش فرومنتان " الصحراء " سنوات طويلة ، فاحسها بكل كيانه الروحي والجسدي ، حتى ألهمته لوحـات متميـزة خالـدة ، و مثلـت لوحتـه " العطـش " قمـة إبداعاتـه عـن الصـحراء ، حيـث تتجلـى الصـورة التراجيدية لحياة الإنسان في الصـحراء القاسـية ! ٠٠ كـذلك لوحتـه الشـهيرة : " مشـــهد صـحراوي " أو " لصوص الليل " التي جسدت روعة الليل في الصحراء ، و صورت مظهراً من مظاهر الحياة البدوية ..!

وعقـــب ثلاث رحلات طويلة إلي الجزائر ٠٠ نشر فرومنتان كتابه " صـيف فـي الصـحراء Une ete dans le Sahare " عـام ١٨٥٧ ، ثـم كتـاب " سنـــة فــي الســاحـــــــل Une annee dans le Sahel " عـام ١٨٥٩ ، و قد كتب عنهما الناقد الفرنسي " لويس جونس " في كتابه : " أوجين فرومنتان مصوراً و أديبـاً " قائلاً :

" إن كتاب الصحراء هو الصيف الأفريقي بعينه ، بكل ما فيه من أضواء و ألوان صاخبة عنيفة ، و هدوء قاتل ، و خشونة و شاعرية غريبة ، أما كتاب الساحل ، فهو الجزائر بذاتهـا ٠٠ الجزائر الضاحكة المخضرة بسـمائها المتغيرة و سحبها و ألوانها المختلفة و انعكاسات الأضواء ، و الجبال الشاهقة و آفاق بلا نهاية " !

وبـدعـوة من الخديو إسماعيل ، شارك فرومنتان في احتفالات افتتاح قناة السـويس عـام ١٨٦٩ ، وقدم صورة صادقة متعددة الألوان عن مصر وكان في أعماقه شاعراً ، أكثر منه مصوراً ٠٠ حتى أنه عنـدما رحل إلي مصر لم يكن معه أدوات للرسم ، وإنما اصطحب معه مفكرة لرصد انطباعاته و التي كانت و بحق أبدع مذكرات سجلها فنان ٠٠ ومن أشهر لوحاته المصرية " لصوص الخيل في الصحراء " و " الغـروب علـى شاطئ النيل " و "النوبيات على شاطئ النيل " ٠٠ التي أبـرزت قدرتـه الخارقـة علـى التلاعـب بالـدرجات اللونية ، وهذه المقدرة الفنية أتاحت له وصف أدق الفروق اللونية التي تطرأ على مياه النيـــل، فهي تــارة في لون الوحل ، عسلية اللون ، رمادية ، فضية مخضرة أو زرقاء قــاتمـــة ..

وتـــدل إبداعات فرومنتان على عمق ثقافته و سعة إطلاعه و نـزوع إلـي الابتكـار والتميـز ، وكـان يعشق العزلة ليعيش " خارج الزمان و المكان " ٠٠! و وصف نفسه بأنه : " ليس رحالة يصـور كـل مـا تقـع عليه عيناه ، بل هو فنان يرتحل وراء ما ينبغي تصويره ، محاولاً التمييز بين الجميل و الغريب " ..

والتر تيندال

مع نهاية القرن التاسع عشر ، كان "والتر فردريك تيندال" ١٨٥٥ – ١٩٤٣ واحداً من أشهر الفنانين المستشرقين ، الذين تخصصوا فى الموضوعات المصرية ، وقد تمتعت ابداعاته عن القاهرة الإسلامية بشهرة فائقة ، بما بلغته من دقة التصوير وسحر أسر وجاذبية متفردة ، وقد ألهمته القاهرة بحياتها اليومية الحافلة بمشاهد بسطاء الناس ، والحركة الصاخبة فى الشوارع والطرقات والأسواق وإبراز عظمة العمارة

الإسلامية ، فأجاد ما يمكن أن نسميه عملية توثيق فنى للقاهرة ووادى النيل بصفة عامة ، فى ذلك العصر.

كان لتيندال أسلوبه الفنى المتميز ، الواضح ، يمزج بين الأضواء والظلال فى براعة ، مع دقة التفاصيل وبهجة ألوان متألقة غزيرة ، وحاسة عجيبة فى إختيار الألوان ، فيبدو جليا من دقة إختياراته ، أنه لا يريد إختبار حقيقة مشاعرنا ، ولكنها طبيعته ..

ولد تيندال فى بلجيكا ، من أبوين بريطانيين إمتدت إقامتهما فى هذة الدولة . والده كان محاميا ، فى سن الخامسة عشرة ، التحق بأكاديمية " بريج ".. غير أن الحرب الفرنسية البروسية ، كانت سببا فى قطع دراسته ، بعدما أجبر والديه على العودة إلى انجلترا ، ليستقروا فى " بيرث " وفى السنوات التالية ، كانت ملامح التكوين الفنى لوالتر ، قد بدأت تتبلور نسبياً وفى عام ١٨٤٧ ، إلتحق بأكاديمية " انفير " عندما عادت عائلته لتستقر فى بلجيكا مرة أخرى .

الطلبه الأجانب بهذة الأكاديمية ، اشتهروا بعدم الإنضباط والإلتزام بإستثناء تيندال ، الذى حاز الميدالية الفضية فى نهاية السنة الأولى ، تقديراً لإجتهاده وتميزه الفنى – غير أنه لم يكمل العام الدراسى الثانى ، إذ لم يستطع مقاومة إغراء الدراسة فى باريس .

وفى باريس إلتحق بأتيليه الفنا المستشرق " ليون بونات " الذى كان أحد رموز الواقعية ..فى عام ١٨٦٨ ، كان ضمن المجموعة التى قادها الفنان " جان ليون جيروم " وزاروا وادى النيل وسيناء وسوريا ، وأثمرت هذة الرحلة مجموعة رائعة من ابداعات تيندال .

وهكذا دخل تيندال دائرة المستشرقين الفرنسيين . وقد كان للإسكتشات والقصص التى أحضرها معه بونات من مصر ، تأثيرا على أحاسيس تيندال وتنمية حبه للمغامرة ، وقام بجولة فى باريس مع قدامى الطلبة بأكاديمية انفير ، وتحت إشراف الفنان البلجيكى الشهير " جان فان بيرز " الذى أقام بالعاصمة الفرنسية زمنا ..

اتسمت الأعمال الفنية الأكاديمية لتيندال بالواقعية ، وضحت فيها تأثيرات التعليم الأكاديمى وتدوينه لملاحظاته عن الطبيعة ، وان احتفظ بشخصيته وأسلوبه الخاص ، الذى تباين مع أعمال أشهر الواقعيين :

مانيه و كوربيه و باستيان لوباج .. ويروى عنه أنه كان يدرس جيدا ، وبدقة عجيبة ألوان المشهد قبل أن يبدعه ، كما تميز بتنوع موضوعاته المختارة بعناية متخلصا من الإتهام الموجه إلى الواقعيين بأنهم " لا يختارون " موضوعاتهم !

فى عام ١٨٧٨ عاد إلى إنجلترا ، واشتهر كرسام بورترية ، نظرا للنجاح الذى حققه برسم صورة توفى صاحبها ، فتوالت عليه الطلبات لرسم أشخاص من صور فوتوغرافية بعد وفاتهم ، هذة " العادة الجنائزية " كما أطلق عليها ، بالإضافة إلى المحاضرات الخاصة ، أفائت عليه أرباحاً أهلته لأن يتزوج عام ١٨٨٣ .

فى صيف ١٨٩٣ ، ظل يمارس الرسم بألوان الماء ، مع تلميذته الرسامة " هيلين الينجهام " حتى برع فى هذا الفن ، ثم قضى أجازة فى طنجه ١٨٩٤-١٨٩٥ أنجز خلالها عددا من لوحات ألوان الماء ، غاية فى الرقة ، حتى أن مسئولى معرض " دودى زويل جاليرى " لندن ، طلبوا منه أن يرحل إلى مصروإبداع ستين مشهدا عنها .

فى أبريل ١٨٩٧ ، وصل تينداال إلى القاهرة ، ليقضى عامين بمصر ، وشهور الصيف منهما قضاها فى لبنان وسوريا، ومع الفنان " هنرى سامبسون " قضى سبعة أسابيع بمدينة رشيد ، والتى رأى فيها سامبسون أنها أكثر الأماكن مثالية لإقامة فنان فى مصر ، وهى التى تأثرت بالتحديث والتطوير الذى شمل الإسكندرية فى عهد محمد على و خلفائه.

واجه تينداال بعض الصعوبات ، مثل إزعاج الأطفال والمتطفلين وبعض المتشددين الذين يحرمون رسم الأشخاص فى شهر رمضان ، حدث أن احتج عليه شاب ، إحتجاجاً مفزعاً ، لدخول أحدى بائعات الفاكهة إلى مرسمه ، تطورت إلى مشادة عنيفة نتج عنها إصابة تينداال ببعض الكدمات ، فأبلغ الشرطة ، ويحبس هذا الشاب ستة عشر يوما .

وروى تينداال أنه كان جالسا – ذات يوم – فى حانوت ، يرسم بوابة أحد الجوامع فى مواجهته واجتذب انتباهه موكب عرس ، رجال فوق صهوات الجياد ، وفرقة موسيقية على ظهور الحمير ، أطفال فى ثياب جديدة ، وجمال مزينه ، والبعض يتبارزون بالعصى ، والعروس تحت مظلة حريرية حمراء ، يحف بها

نساء محجبات يطلقن الزغاريد .. وبذل قصارى جهده فى أن يختزن تفاصيل عديدة فى ذاكرته مما إضطره إلى التوقف عن الرسم فى هذا اليوم !

ويغلب على مشاهد القاهرة التى أبدعها تيندال ، تصوير أشهر شوارع العمارة الإسلامية . جوامع وأسبلة ، ومناظر داخلية لها ، وبعض الأضرحة ، وشوارع و أسواق ، تميزت بواقعية التفاصيل ، وتناغم الألوان التى تخيرها بعناية ، و إحترامه لفن العمارة ، جعل من هذة المعالم التى رسمها قيمة فنية ، أكثر من كونها مجرد ديكورات ، والأسوار الهائلة أستخدمت كدعامات لتفاصيل محددة غير مرهقة ، وتمازج الضوء والظل فى الواقع ، ساعده على الا يقع فى إشكالية التكوينات الآلية المتشابهة !

فى عام ١٨٩٨ ، أنجز عددا من اللوحات ، أرسل بها إلى بريطانيا ، أقيم لها معرض خاص فى لندن ، وفضل أن يبقى فى الشرق الإوسط حتى أبريل ١٨٩٩ ، وزار فى طريق عودته جزيرة صقلية ،وفى يونيو من نفس العام ، أقام معرضه الخاص الثانى ، بعنوان " القاهرة – القدس – صقلية " ..

فى عام ١٩٠٠ ، قام برحلة إلى إيطاليا ،أثمرت عن مجموعه لوحات تمثل أشهر الأسواق الايطالية . وفى البندقية إلتقى بالفنان " سامبسون " مرة أخرى .. وفى عام ١٩٠٥ ، عاوده الحنين إلى القاهرة ، ليبقى فيها معظم السنوات الخمس التالية .. وبصحبة صديقه سامبسون يصعدا النيل ، بدعوة من أسرة إنجليزية ، فى دهبيتها الخاصة ، فأمضيا ثلاثة شهور فى بلاد النوبة ، ثم أنحدرا مع النهر ، وتوقفا بمدينة الأقصر ، نحو ثلاثة أسابيع ، ليعود لإليها فى العام التالى ، وينسخ النقوش البارزة لمعبد الدير البحرى الشهير ، ويبعث بها إلى متحف " المتروبوليتان " بنيويورك ،و متاحف تورنتو وادينبرج ، أيضاً نشط فى نسخ نقوش معبد سيتى الأول ومعبد إدفو ، وكان وعالم المصريات " أرثر ويجال " يعيشان بين هذة الاطلال – بتصريح خاص – وينا ما أعلى معبد إدفو ، هربا من الحرارة الشديدة داخل أبهاء المعبد وقد تسبب ارتفاع الحرارة والأتربة ، فى إصابتهما بالتهاب رئوى ، إستدعى نقلهما إلى مستشفى الإرسالية بأسيوط ، ثم عودتهما إلى إنجلترا ، ولكنهما فى فصل الشتاء عادا إلى الأقصر مرة أخرى !

والأعمال التى أبدعها تيندال فى تلك الفترة ، شكلت محورا هاما فى كتابيه الأول " مصر ، ما بعد الشلالات " ١٩٠٧ والثانى " فنان فى مصر " ١٩١٢ ، ونصوص هذين الكتابين ، تتضمن انطباعاته الذاتية خلال جولاته بمدينة القاهرة ، ووصف لمواقع أثرية بطول ضفاف النيل ، وبعض القصص المسلية ، واستمتع

تيندال بالهبيات الفاخرة الخاصة بأصدقائة الأثرياء ، وكان من اليسير أن يعود إلى إنجلترا خلال فصول الصيف .. وقام برحلة مع صديقه " ويجال " من مدينة قوص إلى القصير عبر الصحراء الشرقية ، مستخدمين الطريق الوعر المعروف منذ عهود الفراعنة .

حقاً إن الشرق يبدأ من القاهرة

هذه الكلمة الشهيرة التى قالها الأديب الرحالة الفرنسى "جوستاف فلوبير" .. يوم كان للقاهرة غموض السحر الذى إجتذب الرحالة والأدباء والفنانين الأوروبيين ، فى رحيلهم اليومى المغامر ، فحركت فى نفوسهم الحنين المضطرم إلى عبق الصحارى وصخب الزحام وواجهات الحوانيت ودفء الحياة وروائح التوابل والثياب المزركشة وآثار الماضى العريق وأساطير ألف ليلة وليلة ، ليرسموا لنا مشاهد تنبض بالحياة ، متباينة الألوان ، والظلال لمجتمع القاهرة فى زمانها الجميل ..

فكانت القاهرة خلال القرن التاسع عشر – العصر الذهبى للرحلات – أعظم ملهم للفنانين الأوروبيين ، بما تعرضه من موضوعات جذابة وتفسير خاص لظاهرة الضوء والألوان الصاخبة والمفارقات

المدهشة .. حتى كتب الفنان الألمانى الشهير "كارل هاج" عام ١٨٥٨ إلى أصدقائه من الفنانين والرحالة الأوروبيين : "إن هؤلاء الذين يبحثون عن مادة مثيرة يستلهمونها فى إبداعاتهم عليهم أن يتوجهوا إلى القاهرة – هى قاهرة واحدة فى العالم كله – تتألق فى وقار وجلال على ضفاف النيل العظيم ، وبين روابيها الخضراء وتلالها الذهبية وآثار الفراعنة ، وتراثها الإسلامى العريق ، مازال ماثلاً فى كل مظاهر الحياة فيها ، وتتجلى عبقرية المكان والزمان والإلهامات المبدعة ، ولا شك أن خيال الفنان سيصيغ من هذا الواقع روائع شرقية خالدة"!

وكانت جولاتى بين كتب الرحلة وابداعات الفنانين المستشرقين الاوروبيين، فى مكتبات المعاهد الاجنبية بالقاهرة ، قد اوحت لى بفكرة هذا الكتاب ، الذى يتضمن روائع مدارس مختلفة من الفن الاستشراقى ، والتى لم يسبق نشرها فى المكتبة العربية ، وبعض انطباعات هؤلاء الفنانين عن " قاهرة الشرق " .. وصور ثبتت لحظات زمنية من تاريخ القاهرة وثرائها ، شوارع واسواق ووكالات واسبلة وحمامات وبيوت ومقاهى ، وقباب ومآذن .. كلها تشهد بروعة فنون العمارة الاسلامية ومشاهد من الحياه اليومية اذهلت هؤلاء الفنانين بتنوع وثراء موضوعاتها .. باقة يتضوع شذاها بعطر الماضى الجميل .. اضعها بين يدى محبى الفن وهواة التاريخ وعشاق القاهرة !

الفهرس